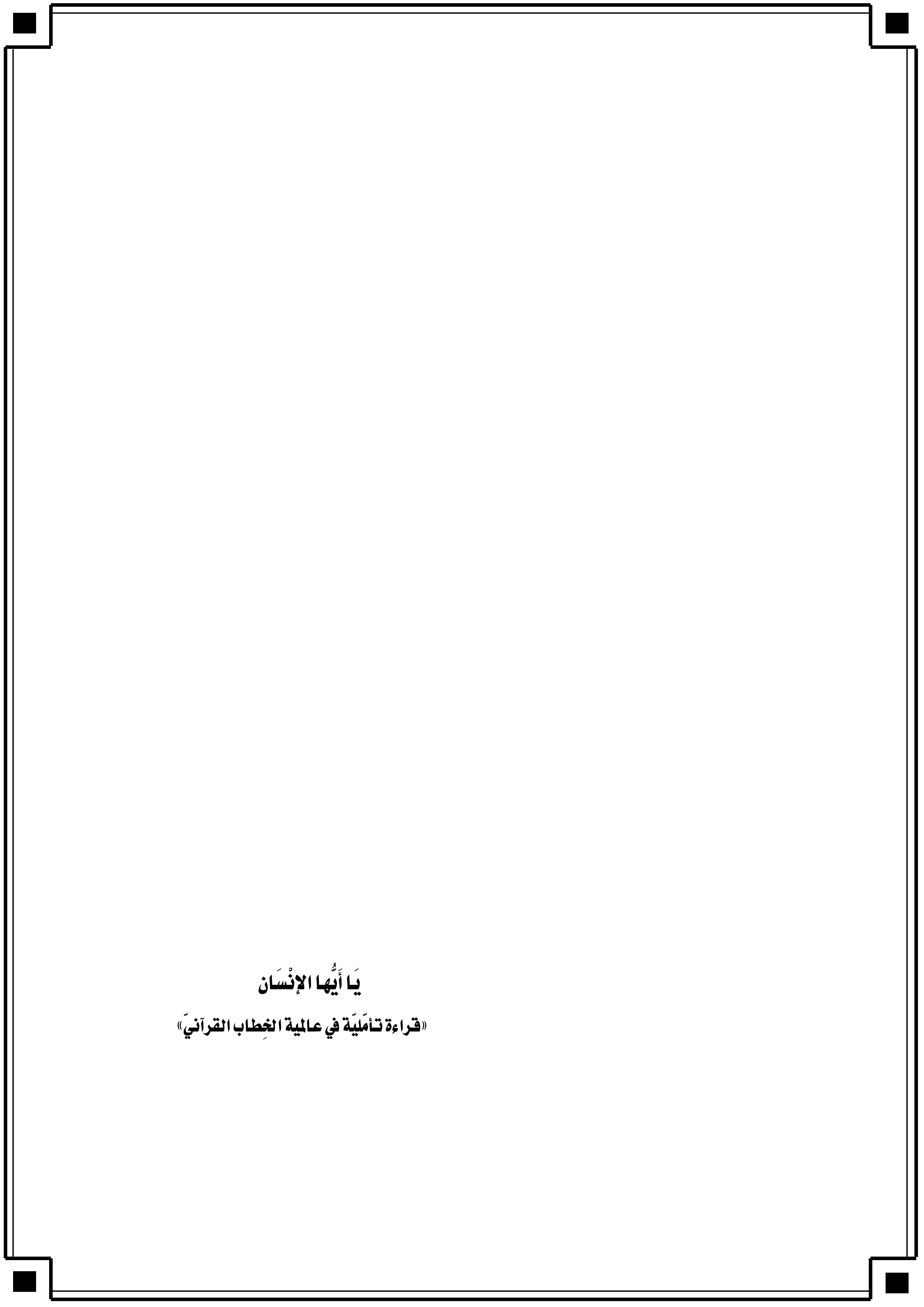


يَا أَيُّها الإنْسَان

«قراءة تأمّليّة في عالمية الخِطاب القرآنيّ»

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٩/٤٠٩٢)

٢٢٥,١٢

السعودي، أحمد

يا أيها الإنسان: قراءة تأملية في عالمية الخطاب القرآني/ أحمد عطية السعودي._ عمان: دار المأمون، ٢٠٠٩.

(٩٣) ص

ر.أ: (٤٠٩٢ / ٩/ ٢٠٠٩).

الواصفات: / إعجاز القرآن/ / القرآن/ / الإنسان/

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com

يَا أَيُّهَا الإنْسَان

(قراءة تأمّليّة في عالمية الخِطاب القرآنيّ)

- نِداء من الله ذي الجَلال والإكْرام إلى عبدِه الإنسان
- نِداء من الله الغَني الحميد إلى الإنسان الطَّريد الشَّريد
- نِداء من الخالق البارئ المصوّر إلى الإنسان المخلوق المكرّم

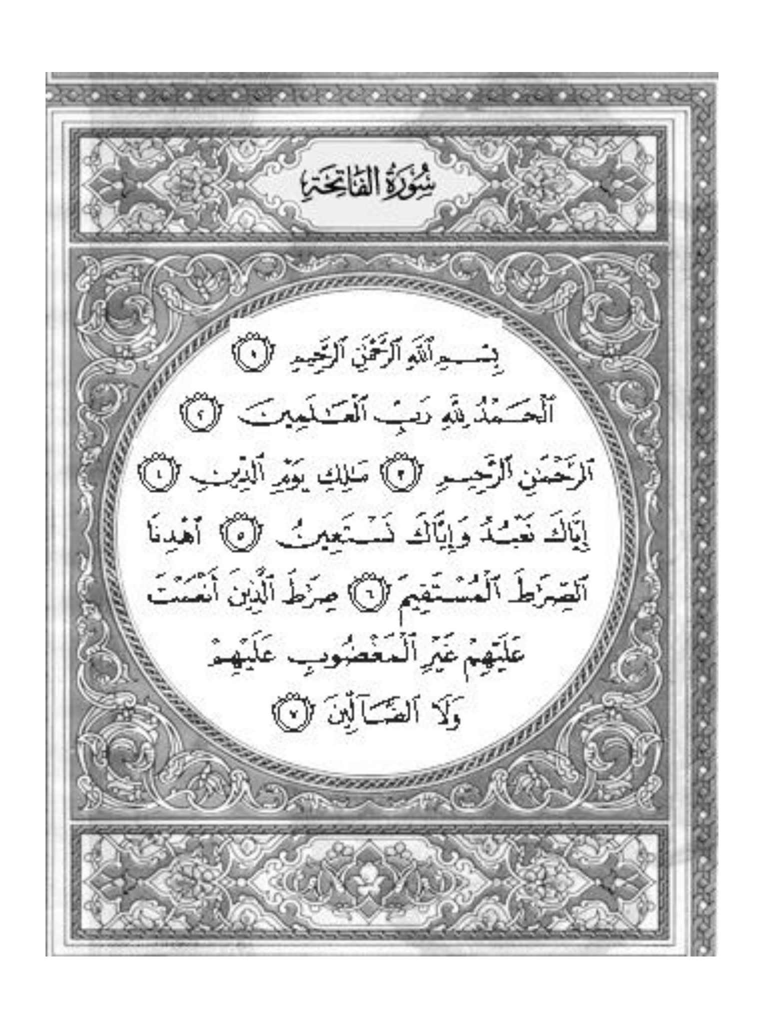
بقلم

د. أحمد عطية السُّعوديّ

الأردنّ

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م





سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم (١)
الحمد لله رب العالمين (٢)
الرحمن الرحيم (٣) مالك يوم الدين (٤)
إياك نعبد وإياك نستعين (٥) اهدنا
الصراط المستقيم (٦) صراط الذين أنعمت
عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين (٧)



المقدمة



أحمدُ الله الَّذي خلقَ الإنسان، علَّمَهُ البيان، والّـذي رفـعَ السَّـماء، ووضـعَ الميـزان، وأصلِّي وأسلِّمُ على رسولِ الله حاملِ الـوَحْي، وقائـدِ الخَلْـق إلى الحـقّ، والمثـلِ الأعلـى للخليقة الَّذي اجتمعَتْ فيـه كَمـالات الـنَّفس والخلُـق، وعلـى آلـهِ الأطهـار، وأصـحابِه الأبرار، وبعد؛

فما أنتَ أيّها الإنسان إلا آيةٌ ربانيّةٌ باهرة بجَّلَتْها الملائكـةُ بالسُّـجود، وصـدَحَتْ لهـا الأطيارُ بالتَّغريد، وترنّمَتْ لها الجداولُ بالخرير، وتضوّعَتْ لها الأزهارُ بالعَبير.

وما أنتَ إلا حكايةُ الكون منذُ البَدْء، وفي البَدْء كانت الكلمة، وكـانَ القلـم، وكـان الحقّ، وكان القِسْط.

وما أنتَ إلا بَطَلٌ سُلِّطَتْ عليه الأضواء في مُسَلْسَل الحياةِ الذي اتّصلَتْ حلقاتُه، ولم تنقطعْ مُذْ ظهرَ آدمُ عليه السَّلام على شاشـةِ الوجـود أوَّلَ مـرّة، إلى أنْ يـرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

وقد شَغَلْتَ نفسَك بنفسِك في نفسِك، أعني أنَّ المفكرين والفلاسفةَ الذين هم مِنْ جِنْسِك قد شغلْتَهم على مَرِّ الأعصار والأجيال، وأنفقوا وقتاً هائلاً، وأهلكوا مالاً لُبَداً في تعـرُّف حياتـك، وسَـبْر أغـوارك، حتـى توالَـتْ مـواكبُهم تَتْـرَى مـن عهـدِ هيرقليطس الإغريقيّ، وسُقراط، وأفلاطون، وأرسطو، والفارابي، والكِنْـدي، وابـن سـينا، وكانـتْ، وهيجل، ونيتشه، وديكارت، إلى عهدِ فوكاياما الأمريكيّ في هذه الأيام العِجاف السُّوداء.

ولكنَّك كنتُ تَسْتعصي على الفَهْـم، وتسـتغلقُ في الاسـتقراء، غـيرَ أنَّ ربَّـك الـذي خَلقَك، ويعلمُ ما توسوسُ به نفسُك، وما يعتلجُ في صَدْرك، قـد بـيَّنَ حقيقتَـك، وأظهـرَ أسرارَك، وكشفَ لِثامَك: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜🙞🙜

فيا أيّها الإنسان،

هذا نداءُ الله إليك؛ ليخرجَك من الرُّكامِ الثقيل، والظَّلامِ البهـيم، والتّيـهِ العـريض، ليخرجَك إلى الأدواحِ المتراحبة، والرِّياض المؤرَّجة، والأنوارِ المتلألئة، فأنتَ قرّةُ عينِ هـذا الكون، وبهجةُ عُمرِه، وأُنْسُ وجودِه، بك تحلو معارجُه، وتزدانُ مباهجُه!

ويا أيّها الإنسان،

هذا نداءُ الله إليك فاستمعْ لما يُوحى، واقرأ كتابَ ربّك كأنّهُ يتنزَّلُ عليك.

استمعْ لما يُوحى إنصاتاً بأذنِك، وإصغاءً بروحِك، وتأمُّلاً بعينِـك، وتـدبّراً بعقلِـك، واستجابةً بقلبِك، واستقامةً على جوارحِك.

ويا أيّها الإنسان،

هذا نداءُ الله إليك فاخلعْ رداءَ أوزارِك إنّك في رحابِ الذِّكر الحكيم، وافـتحْ قلبَـك لهذا النِّداءِ الرَّبانيّ الكريم، وتضرّعْ بأصْغريك، لسانِك وقلبِك:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.

د. أحمد عطية السُّعوديّ

dr.abuemam@hotmail.com

(١)

ذِكْرُك في كتابِ رَبِّك

إنْ رُمْتَ أخي الإنسان أنْ تسألَ عن نِجارة أصْلِك، وكريمِ مَحْتِدِك، وعراقَةِ إنسانيتِك، فأنتَ في لغة العرب من الجَذْر الثلاثـيّ (أَنـسَ)، فـإذا قيـل: أنـسَ فـلانٌ بفلان فيعني أنّه سكنَ إليه واطمأنّ، وذهبتْ به وحشتُهُ، ففرحَ وجَذِلَ.

وأصلُ لفظِك: إنْسِيان؛ لأنَّ العربَ قاطبة قالوا في التصغير: أُنَيْسِيان، وجمعُـك ناس، وأناسين، وأناسيّ. ويقال للمرأة إنسان، ولا يقال: إنسانة، والعامةُ تقولُه[1].

وأنتَ في اصطلاح الشّرائع، وعُرْف العقلاء: كائن حَيّ، ناطق، مُفكّر، مُكـرّم، مسؤول، راقٍ ذهناً وعقلاً، مكلّف بحمل الأمانة.

وأنتَ من سُلالةٍ من طين، أصلُك جَليٌّ جلاءَ الشمس، وشجرةُ نَسَبِك أوثـقُ شجرة في الكون، ولستَ قِرْداً من سُلالة القرود كما زعمَ الخرّاصون[2].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، مادة (أنس)، م ٦، ص ١٠.

(٢) زعم "داروين" أنَّ الإنسان تطوّر من سلالة القرود، وأنّه تدرّج في ستّ عشرة مرحلة، يقع في أسفل السلسلة الزنوج ثمَّ الهنود ثمَّ الماويون ثمَّ العرب، وأنَّ حياة الإنسان تنتهي بالموت، ولا شيء بعد ذلك!
وزعم أنَّ الوجود قام بدون خالق، وأنَّ بداية المخلوقات كانت من خلية واحدة هي "الأميبا"، وأنَّ الإنسان هو نوع من الثدييات تطوّر ونشأ من القرود.
وتعدّ نظريته هذه الأساس للإباحية الجنسية الحديثة، والأساس لنظرية الفكر الشيوعيّ الذي أنشأه "ماركس" و"إنجلز"، والأساس لنظرية "فرويد" الجنسية، ونظرية "دوركايم" الاجتماعية.
انظر: مجلة الإعجاز العلمي، هيئة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، ع ١١، شوال ١٤٢٢هـ، حقيقة نظرية داروين، د. حامد إسحاق خوجه.
وانظر للرد على مزاعم داروين: الإنسان ذلك الكائن الفريد، جون لويس، ترجمة د. صالح جواد كاظم، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م، ص ٢٩-٤٩.

وأنتَ قبضةٌ من طين الأرض، ونفخةٌ من روح الله، قبضـةٌ مـن طـين الأرض تتمثّلُ فيها عناصرُ الأرض المادية، ورغائبُها وضروراتُها، وقبضةٌ من روح الله تتمثّلُ فيها إشراقةُ الرّوح الصافية، وقوةُ الوعي المدركة، وقدرةُ النفس المريدة[1].

وقد بثَّ ربُّك ﷻ من أبويك آدمَ وحواء رجـالاً كـثيراً ونسـاء، فأنـتَ اليـومَ واحدٌ من ستة مليارات من البشر الأحياء الذين يقطنون ستَّ قارات تنتشرُ في هـذا العالم الواسع.

ولقد ذكرَك ربُّك المَلِكُ القُـدّوسُ في كتابـه العزيـز، وحَملـتْ إحـدى سُـورِه الكريمة اسمَك، وخصَّكَ بخطابِه وندائِه؛ ليشرِّفَك ويُشعرَك بقربه منك، وحبِّه لـك، وأنّك مناطُ تكليفِه، وموضعُ عنايتِه وإكرامِه، ومحلُّ رحمتِه ولطفِه.

ولقد جعل لك ربُّك الرَّافعُ المُعزّ قيمةً عظيمة، وأعلى لك شأنك، ورفع لـك قَدْرَك، وحَبَاك مكانةً سامقة، وفضَّلك على كثير ممَّنْ خلقَ تفضيلاً.

ذكرَكَ ربُّك العَليُّ الكبيرُ في كتابه العزيز خمساً وستين مرّة،[2] منها ستّ مرات وردت في سُورة واحدة هي القيامة، ومنها مرّتان ذكرَك فيهما بصيغة النِّداء.

وفي كلّ هذه المرّات التي ذكَرَك فيها ربُّك السَّلامُ المؤمنُ لم يأمرْك بصيغة الأمر المعروفة، ولم يَنْهَك بصيغة النَّهي المألوفة، وإنّما تحدّثَ عنك، وتحدّثَ إليك:

---

(١) منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٦، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص ٣٣.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، مادة (أنس)، ص ٩٣.

تحدّثَ عن أصلِ خَلْقِك، وحذَّركَ من عدوِّك، وبيّنَ صفاتِك وتقلُّبَك، وحمَّلَك مسؤولية أعمالك، ووصّاك بوالديك، ودعاك إلى التفكّر في خَلْقـك، وفي طعامِـك، وأعلمَك بأنّه سيبعثُك بعدَ مماتِك.

وتحدّثَ إليك بنداءٍ كريم، فأخبرَك أنّك ستجدُ ما تكدحُ وتعمل، وستُحاسَـبُ عليه يومَ القيامة، وستقابلُ ربَّك الجليل، ليس بينَك وبينَهُ تَرْجَمان.

وتعجّبَ ربُّك الكريم في حديثه إليك من جرأتِك عليـه مـع أنّـك خَلْـقٌ مـن خَلْقِه، فما يغرُّك، وما يُبْعدُك عنه، وهو الذي خلقَك فسوَّاك فعـدَلَك في أيّ صـورةٍ ما شاءَ ركَّبَك.

وربُّكَ الكريمُ إذ يتحدّثُ إليك، ويتحدّثُ عنك فإنّما يريدُ أنْ تكونَ إنسانيتُكَ سَويّةً متّزنة كخَلْقِك السَّوي المتّزن، وتكونَ إنسانيتُكَ جميلةً قويمة كخَلْقِك المركَّب في أجملِ صورة، وأحسنِ تقويم، وذلك ليتوافقَ في كيانِك الخَلْقُ والخُلُق، ويتكاملَ فيك الجوهرُ والمظهر، فتغدو الإنسانَ الذي أرادَهُ ربُّك، وكرَّمَهُ ربُّك، وأحبَّهُ ربُّك.

(٢)

يومَ كُنْتَ صِفْراً

لم تكنْ أنتَ شيئاً، ولم أكنْ أنا حينَ كان الكونُ رَتْقاً فَفُتِق، فإذا هو بُنيانٌ ضخمٌ هائلٌ، وملكوتٌ مُهَنْدَسٌ مَوْزون لا ترى فيه من تفاوتٍ أو فُطُور، وإذا هو أرضٌ وسماء، وأثيرٌ وفضاء، ونجومٌ وأجرام، وجبالٌ وبحار، ومِهادٌ ووهاد.

لم تكنْ شيئاً مذكوراً في أروقة الكون؛ إذ تطلعُ شمسُه، ويُطِلُّ قمرُه، ويتنفّسُ صبحُه، ويَسْجُو ليلُه، ولم تكنْ هَباءً منثوراً، ولم تكنْ نوراً منشوراً، بل كنتَ عَدَماً.

وكانَ الوجود، وأنتَ غيرُ موجود، وكان الشُّهود، وأنتَ مفقود، وكان الكونُ أرقاماً كبيرةً كثيرة، وكنتَ صِفْراً لا تعلمُ شيئاً:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان، آية١]

ثمَّ شاء ربُّك ﷻ لحكمةٍ بالغة أنْ يخلقَك من نطفةٍ أمشاج، ويجعلَك سمعياً بصيراً؛ ويهديَك السَّبيل؛ ليبتليَك فيما آتاك، أتشكرُ أم تكفر.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان، الآيتان ٢، ٣]

ثمَّ لمّا صرتَ بشراً سَويّاً تَعي وتَعْقل، وترى وتسمع، وعافَسْت الحياة، وأبحرتَ في نعمِ الله، ها أنت ترى من بني جِنْسِك مَنْ يُنكرُ المآلَ والمصير، ويزعمُ أنَّه لنْ يُبعثَ بعدَ الممات: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم، الآيتان ٦٦-٦٧]

ثمَّ بعدَ أنْ لم تكنْ شيئاً مذكوراً جعلَك الله ﷻ شيئاً، بل جعلَـك خليفـةً لـه في الأرض، وكلمةُ الخلافةِ كلمةٌ ضخمةٌ ذات إيحاءات، ومن إيحاءاتها أنَّك كائن عظيم القَدْر ذو أهمية بارزة في الحياة، وأنّك خليفةُ الخالق المبدع المسيطر علـى كـلّ قُـوى الكون، فأنتَ المخلوقُ الذي احتفلتْ به السَّموات والأرض، وتولَّى الله ﷻ بنفسِـه إعلانَ مَقْدمك على الملأ الأعلى، والملائكةُ يفزعون للنبأ ويهتزّون[1].

وأنتَ مخلوقٌ مُتفرِّد، وخطير الشَّـأن في دورة الحيـاة، ومُـزوَّدٌ بطاقـات هائلـة، ومُشتملٌ على نقطة ضَعْف هي حُبّ الشهوات، ونسيان العَهْد، ومخلوقٌ ذو طبيعـة مزدوجة فيـه القـدرةُ علـى الارتفـاع إلى أقصـى مـدى، والقـدرةُ علـى الهبـوط إلى الحضيض[2].

وأهلُ العلم يقدّرون أنَّ جدّك الإنسـان الأول يرجـعُ ظهـورُه إلى نحـو مليـون سنة، وأنّه استأثرَ بالعقل وحْدَهُ دون سواه حتى إنَّ أيّ حيوان لم يُسَجِّلْ لنفسه قدرةً على تربيع حَجَر، أو العَدّ لغاية عشرة، أو فهـم معنـى عشـرة، وأنّ العلـمَ يعـترفُ باشتياق الإنسان إلى أشياء أسمى منه، والذي يراه العلم ويقدّره المفكّـرون جمـيعُهم هو أنّ الاعتقادَ بوجود الله له قيمة لا تُقدّر[3].

وترى نظرية أخرى أنَّ وجود جدّك الإنسـان الأوّل يعـودُ إلى نحـو مليـوني سنة، وليس سهلاً على الخيال أن يدركَ المـدى الـزَّمنيّ البعيـد الهائـل الـذي يغطيـه

(١) في النفس الإنسانية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ص ٣٣- ٣٤.
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣-٣٤.
(٣) العلم يدعو إلى الإيمان، ا. كريسي مُوريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضـة المصـرية، القاهرة، ط ٥، ١٩٦٥م، ص ١٥، ١٢٩، ٢٠٤.

ارتقاءُ الحياة على هذا الكوكب[1].

وأنتَ شيء مختلف عن الحيوان، فالحيوان بأعضائه وجوارحه مُكيَّفٌ بصورة دائمة على أسلوب معيّن من الحياة والبيئة لا يستطيع تجاوزه، أمّا أنتَ فلك سلسلةٌ غير محدودة من الأعضاء، وتستطيع أنْ تُكيّفَ نفسَك مع كلّ ظرف وكلّ مُناخ، وأنت في كلّ مكان تحلّ فيه تنوّعُ آلاتِك ونشاطَك وطعامَك وملابسَك وأسلوبَ حياتك[2].

وهذه الأرضُ التي تعيشُ عليها والتي قدَّرَ أهلُ العلم عمرها بنحو ثلاثة ملايين سنة، أثبتَ العلماء المسلمون من قبلُ أنّها كُروية، وقاسوا حجمَها ومحيطَها وقُطْرَها، وعرفوا أنّها أصغرُ من الشمس حجماً، ودرسوا القُبَّة السَّماوية، وبنَوا المراصد لذلك، وحرّروا علمَ الفلك من الخرافة، واخترعوا عشراتِ الآلات الملاحية[3].

وقد استمدّ العلماءُ المسلمون معرفتهم عن الأرض من القرآن الكريم كلامِ الله الذي أبدعَ ما في الكون بعلمِه وحكمتِه وقدرتِه، فكلُّ كلمة في القرآن وكلّ حرفٍ حقٌّ مطلق، وثمّة إشارات كثيرة، وآيات كريمة تتعرّض للأرض في نحو (٤٦١) آية، منها (١١٠) آيات تشير إلى القواعد الأساسية لعلوم الأرض[4].

والحياةُ التي أودعَها الله ﷻ فيك سرُّها الرُّوح، والرُّوح من أمر الله، والحياةُ تُعرف من آثارها فهي التي تسبّبُ الخِصْب والتوالد، وهي التي تلوّنُ كلَّ زهرة،

---

(١) الإنسان ذلك الكائن الفريد، جون لويس، ترجمة د. صالح جواد كاظم، ص٧٧-٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣) الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ص ٨٠-٨٩.

(٤) حقائق علمية في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م، ص ٢٣-٥٠.

وتخطّط كلَّ ورقة، وكلَّ جناح فراشة، وهي التي تجعلُ العقل يفكّر، واليدَ تتحرك، والعيَن تُبصر، والأذنَ تسمع، واللسانَ ينطق، والجلدَ يحسّ ويتألّم، وهي التي تجعلُ على خديّ الطفل حُمْرة، وعلى شفتيه بسمة، وفي عينيه بريقاً، وهي التي تراها نبتةً تفلقُ الصَّخر، وترفعُ أطنان الماء إلى الأوراق كلَّ يوم[1].

فلا تعجبْ بصورتِك بعد هذا الفيض الإلهيّ، ولا تختلْ بمشيتك، ولا تنسَ مبدأ أمرك، فما أنت إلا لقمة ضُمَّتْ إليها جرعة ماء، وقطعة من لحم، ومَذْقة من لبن، فطبختها الكبدُ، فأخرجتْ منها قطراتِ مَنيّ، فاستقرَّ في أبويك فحركتهما الشَّهوة، فصُبّت في الرَّحم مدّةً حتى تكاملت، فخرجتَ طفلاً تتقلّبُ في خِرَق البول، ثمّ بعد موتك يُلقى بك في التراب، ويأكلُك الدُّود، وتصيرُ رُفاتاً تسفيه السَّوافي.

أمّا ما عليه العملُ فالرُّوح، فإن تجوهرَتْ بالأدب، وتقوّمَتْ بالعلم، وعرفَت الصَّانع، وقامتْ بحقّه، فما يضرّها نقصُ المركب، وإن هي بقيتْ على جهالتها شابهت الطين، بل صارتْ إلى أخسّ حالة منه[2].

وأنت كائن مُكلّف قد ميَّزَك ربُّك ﷻ بخاصة التكليف، وأعدَّك لخطاب العقل، وبيّنات الإقناع، ووَضَعك في أشرف مَنْزلة في ميزان الفكر، وانتشلَك من قاع الصُّور الفلسفيّة التي حاولتْ تصويرَك بغير صورتك، ووضْعَك في غير مكانك، فأنت كائن مكلّف تَشْرُف في التقدير من قول القائلين إنك 'الكائن الناطق

(١) الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل، ص ٢٢٢-٢٢٤.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: د. السيد محمد سيد، سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ص ٣٠٠-٣٠١.

"، أو "المَلَك الهابط"، أو "الحيوان الصَّاعد"، ولستَ بشيء إنْ لم تكن أهلاً لأمانة التكليف[1].

ومَنْ أنت إذا لم تجدْ ذاتك، وتستقرّ نفسُك على الاختيار الصَّحيح، وتخلد إليه وتستريح، لقد أعطاك الله ﷻ مساحةً كبيرةً هائلة من المنازل والمراتب، تختارُ منها عُلوّاً وسُفْلاً ما تشاء، أعطاك مِعْراجاً عجيباً تتحركُ فيه روحُك حتى ترقّ وتَلْطُف، وأعطاك منازلَ للجسد إذا لم تحسن استعمالَهُ شابهتَ الحيوان في غرائزِه وشهواتِه، وشابهت الشَّيطانَ في ظلمتِه وانحطاطِه[2].

فهل تطوي صفحاتِك المليئة بالأدران والأوزار، المثقلة بالغفلة والإعراض، وتفتح صفحةً جديدةً بيضاء من غير سوء، وتعرف حقَّ ربّك ﷻ الذي أوجدك من العَدَم، ولم تكن شيئاً مذكوراً، والذي ربّاك بالنعم، وأنتَ في بطن أمّك في ظلماتٍ ثلاث، لا يستطيعُ أحدٌ من المخلوقين أنْ يوصلَ إليك غذاءك، ثمّ لما ولدتَ أدرّ لك ثديين باردين في الصيف، دافئين في الشتاء، ولو حجبَ عنك فضلَهُ طَرْفَةَ عينٍ لهلكتَ، ولو منعك رحمَتَهُ لحظةً لما عشتَ، وربّك غنيّ عنك لا يريدُ منك إلا أنْ تكونَ عبداً له خاضعاً طائعاًولو كان لأحد من الناس عليك فَضْلٌ لاستحييتَ أنْ تبارزَهُ بالمعصية، وتجاهرَهُ بالمخالفة، فكيف بربّك الذي كُلُّ فضلٍ عليك هو فضلُهُ، وكُلُّ ما يندفعُ عنك من سُوء هو من رحمتِه[3].

(٣)

---

(١) الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، صيدا، ص٢٠.

(٢) القرآن كائن حيّ، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص ٥٣- ٥٥.

(٣) حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة، محمد الصالح العثيمين، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، ١٤١٩هـ، ص ٧-٨.

أنتَ أجملُ الكائنات!

أنبأك ربُّك الخالقُ تباركَ وتعالى بأنّه قد جعلَك شيئاً عظيماً، وأوجدَك على مَسْرح الحياة، وسلّطَ عليك الأضواء، بعد أنْ لم تكنْ شيئاً مذكوراً، فأنباك عن أَصْل أبيك آدم، وأنّه خُلِقَ من طينٍ يابسٍ يُسْمَعُ له صَلْصَلة إذا نُقِر، حتى صار في غاية الصَّلابة كالفَخَّار:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحِجر:٢٦]
- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]

فأصلُ خَلْقِ أبيك من خُلاصة اُستُلَّتْ من طين، ثمَّ صارتْ ذُرّيّتُهُ تتناسل من خلاصةٍ من ماء ضعيف حقير هو النُّطْفة:

- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل:٤]
- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٧-٨]

ولم يَقُلْ سبحانه من نُطَف، بل من نُطْفة واحدة من المَني، فملايين النُّطَف التي تسبحُ باتجاه البويضة الموجودة في الرَّحم تعودُ كلّها خائبة خاسرة، ولا يصلُ منها إلى البويضة إلا حيوان منوي واحد يقوم بتلقيحها، ويشكّل معها سَدّاً منيعاً لا

يخترقه شيءٌ بعد تشكّله، ومن هذه النُّطْفة الدَّافقة من الرَّجل يتكّونُ جنسُ المولـود، وهذه الحقيقة القرآنيّة هي حقيقـةٌ علميّة طبيّة[1].

وقد تحوَّلَ هذا الماءُ إلى دم جامـد يشـبه العَلَـق يتعلّـقُ بـالرَّحم، والعَلَقـة دودة صغيرة، وقد أثبتَ الطبّ الحديث أنَّ المنيّ يحتوي علـى ديـدان صـغيرة لا تُـرى إلا بالِمْجهر الدقيق، وأنّ لها رأساً وذنباً.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العلق:٢]

وانتقلت النُّطْفة من صُلْب الرَّجل، واستقرَّتْ في مكان متمكّن من الأنثى هـو الرَّحم، ثم صار الماءُ الدَّافق دَماً جامداً يشبهُ العَلَقة، وصار الدَّمُ الجامد قطعـةَ لحـم لا شكلَ لها ولا تخطيط، وصارتْ قطعةُ اللحم عظاماً صُلْبة؛ لتكونَ عموداً للبـدن، وسُتِرت العظامُ باللحم، فكانت كالكسوة لها، ثمّ بعد تلك الأطوار نفخَ الله تبـارك وتعالى فيه الرُّوح، وجعله خَلْقاً آخـر في أحسـن تقـويم، فتعـالى الله وتبـارك، فهـو أحسن الصَّانعين صُنْعاً:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]

وبهذا وصفَ القرآنُ الكريم أطـوارَ الجـنين وصـفاً دقيقـاً مـن خـلال إطـلاق مسمّى على كلّ طور له بداية ونهاية محدّدة، حيث وصفَ المظهرَ الخارجيّ للجـنين، وعكسَ عملياتِ التخلّق الداخلية له في فترات زمنية متعاقبة[1].

---

(١) الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل، ص ٢١٠- ٢١١.

والتقسيم القرآنيّ لمراحل نُموّ الجنين أدقّ من وصف علم الأجنّة، فبعضُ علماء الأجنّة لا يركّزون على مرحلة العَلَقة كما يركّز عليها القرآن، وكذلك مرحلة التَّصوير والتَّسوية والتَّعديل؛ إذ إنَّ ما يحدثُ في الجنين يشبهُ ما يحدث عند بناء عمارة ما، فهناك السِّقالات والأعمدة التي تُقام، ثمّ تُهدم وتُزال، وهناك مرحلة بناء الأساس أولاً، ثمّ مرحلة الأعمدة والجدران، ثمّ مرحلة الأبواب والنوافذ، ثمّ مرحلة التبليط والتحسين المسماة "الدِّيكور"[2].

ثمّ بعد هذه الأطوار كلِّها أخرجَك ربّك البارئ المصوِّر في أحسن صورة، وأبدع خَلْق، مُنتصبَ القامة، مُتناسبَ الأعضاء، حُلْوَ القَوام، مُشرقَ المحيّا، وضّاءَ الوجه، مُزيّناً بالعلم والفهم، مُميّزاً بالعقل والوعي، مُجمّلاً بالنُّطْق والأدب:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]

وها قد استويتَ خَلْقاً رائعاً حتى صرتَ أجملَ الكائنات، وأحلى المخلوقات، فإنْ حفظتَ الله تبارك وتعالى في نفسِك وأهلِك وعبادتِك حفظَك من الارتداد إلى أسفل أسفلين، ورعاك وأنت في أرذل العُمر، وضَعْف الشَّيخوخة، ووقاك من دَرَكات النار، وبيّضَ وجهَك، وسلَّمَك من قُبْح الصُّورة وبشاعتِها يومَ تبيَّضُ وجوه، وتسْوَدُّ وجوه:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]

(١) مجلة الإعجاز العلمي، هيئة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، ع ٨، شوال ١٤٢٢هـ، أطوار الجنين ونفخ الروح، د. عبد الجواد الصاوي.

(٢) الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، د. محيي الدين كحالة، عمان، د.ط، ٢٠٠٤م، ص ١١-٣٢.

ومن أروعِ صُور الجمال التي فيك أنَّ الله تبارك تعالى قد جعلَ لك شخصيةً مستقلة، واتجاهاً محدّداً، وأسلوباً مميّزاً، ووجهةً خاصّةً بك، وشاكلةً تعملُ عليها، فأنت مميّز ببصمة الإصبع، ومميّز ببصمة العين، ومميّز ببصمة رائحة الجسم.

وأنت وَحْدَة مستقلة في ذاتها وصفاتها، فلا تماثلَ بينك وبينَ غيرِك؛ إذْ لَكَ وجهك الخاصّ الذي تتميّز به عن الناس جميعاً، ولك لونك الخاصّ، وصوتك الخاصّ، وبصمتك الجلدية الخاصّة، وتفكيرك الخاصّ، وحواسك الخاصّة، ولك موجة ذاتية تنبعثُ كهربائيتُها وإشعاعاتُها من جسمك، وهذه الإشعاعات أشبه ما تكون بأمطار غير مرئية تنهالُ دائماً فوق الأرض، وتُطْلَق من النجوم والكواكب نتيجة للتفاعل النوويّ الرهيب في أجوافها[1].

وقد أثبتَت الأجهزة الحديثة الدقيقة أنّ لكل جسم هالةً خاصّة من الأضواء المشعة تتشكّل على شكل بيضة ناعمة أعرض عند الرأس منها عند القدمين، وتتكّونُ من طبقة خارجية باهتة وطبقة داخلية لامعة برَّاقة، ويخرجُ من هذه الهالة أحياناً شعاعٌ أكثر بريقاً يمتدُّ عِدَّةَ أقدام من الجسم قبلَ أن يتبدّد[2].

والعجب أنَّ هذه الجماليّة الباهرة، والجاذبية السَّاحرة الكامنة في شخصيتك تنطفئ إذا تقمّصتَ شخصيةَ غيرك، وصرتَ تقلِّدُهُ في الكلمات والأصوات، والحركات والإشارات، وهجرتَ صوتَك لصوتِه، وتركتَ مِشْيَتَك لمشيته، وذُبْتَ فيه، فإذا هو أنت، وإذا أنت هو!

---

(١) الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص ٣٣- ٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١-٤٢.

والحقّ أنّك نسيجُ وَحْدِك، وشيءٌ فريد في هذا العالم، وأنت مخلوقٌ بدقة تثيرُ الرّهبة، وتستدعي الإعجاب، ولو أنَّ لك (٣٠٠) ألف بليون أخ وأخت لكانوا جميعاً مختلفين عنك مُناقضين لك، فاغبطْ نفسَك على هذا التفرّد، واعملْ على الاستزادة مما رُكِّبَ فيك من مواهب وصفات، ولماذا لا تنمو أنت وينمو غيرُك كما تنمو أنواعُ الفاكهة، ولماذا تقلّدُ غيرَك، وقد علمتَ قصّةَ الغراب الذي قلّدَ الحمامة، وراقَهُ المشي على الأرض، فلا هو استطاعَ أن يخطوَ كما يبغي، ولا هو استطاعَ الطيرانَ كما خُلِقَ[1].

ولقد خلقَك الله البديعُ الذي يحبُّ الجمال خلَقَك جميلاً في كونٍ جميل يموج بالضياء والألوان والظّلال في الجبال والوديان، والمحيطات والبحار، والجداول والأنهار، والسُّحب والأمطار، والنبات والطير والحيوان، وفي كلّ ما أبدعَ وخلَق؛ من أجل أنْ تتجاوبَ بموهبتك الفذّة مع روح الكون العميقة تجاوباً مباشراً، فإذا الجمالُ مُنطبعٌ في حسِّك، وإذا نفسُك تتحرّكُ لاستقباله في فرح وسرور، وكأنّ روحَك وروحَ الكون شقيقان متعارفان حيثما تلاقيا هَشَّ كلٌّ منهما لصاحبه، والتقيا في عِناق طويل[2].

والإحساس بالجمال من أعجب الأعاجيب في كيانِك، وقد عجزَ العلمُ عن تفسير ماهية هذا الإحساس، فلا يَعرفُ كيف يحدث، ولكنّه يكتفي بتسجيلِه وتتبّع مظاهره المختلفة، فأنت تحسّ بالجمال الحسّي في المنظر الجميل، والوجه الحسن،

---

(١) جدد حياتك، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص ١٤٣-١٥٤.

(٢) منهج الفنّ الإسلاميّ، محمد قطب، ص ٨٥- ٨٩.

واللون الصافي، والصوت الرَّخيم، وأنت تحسّ بالجمال المعنوي في الفكرة الجميلة، والسُّلوك المهذّب، والذَّوق الرَّفيع، والكلمة الموحية[1].

وربّك ذو الجلال والإكرام يحبّ الجمالَ في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، ويُبغض القبيح من الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يحبُّ الجمال وأهله، ويبغض القبيح وأهله، ومن الجمال الذي يحبّه أنْ يَرى أثر نعمته عليك، وهو جمال الظاهر، أمَّا جمال الباطن فهو أنْ تشكرَهُ عليها[2].

لقد حباك الإسلام جمالاً على جمال؛ إذ أعلى شأنك، ورفعَ قَدْرَك، وأعلنَ في العالمين أنَّك كريمٌ على الله، وأنَّ كرامتَك ذاتيّة أصيلة مستمدة من إنسانيتِك، لا تتبعُ جِنْساً، ولا لوناً، ولا بلداً، ولا قوماً، ولا عرَضاً من الأعراض الزائلة[3].

وكان إعلانُ الإسلام عن كرامتِك ميلاداً جديداً لك أعظمَ من الميلاد الحِسّي، فما أنت بإنسان إذا لم تكنْ لك حقوق وكرامة، وإذا لم تكنْ تلك الحقوق متعَلّقة بوجود ذاتك، وبحقيقتك الماثلة على الأرض[4].

حقّاً، أنت أجمل ما في الكون، أجمل من السُّحب البيضاء السّابحة في الفضاء، وأجمل من الأمواج السَّاجية على صفحة الماء، وأجمل من الأطيار الملوّنة بتغريدها المطرب، وأجمل من الأزهار المخضلّة بألوانها الزّاهية، وأجمل من كلّ لوحة فاتنة!

وإنْ شئتَ فاقرأ هذه القصة واستمتع بها:

---

(١) في النفس الإنسانية، محمد قطب، ص ٢٥٧-٢٥٨

(٢) الفوائد، ابن قيم الجوزية، اعتنى به وصحّحه: فاتن محمد لبون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص ٢١٣- ٢١٦.

(٣) هذا الدين، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ص ٨٢-٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٤.

ﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻ

يروى أنَّ "عيسى الهاشمي" كان يحبُّ زوجتَهُ حبّاً شديداً، فقـال لهـا يومـاً: أنـتِ طالق ثلاثاً إنْ لم تكوني أحسنَ من القمر! فاحتجبَتْ عنه، وقالت: طلَّقني، فلا شيءَ أحسن من القمر.

أمّا هو فحزنَ حزناً شديداً، وذهبَ إلى الخليفة "المنصور"، وأخـبره الخـبر، فاستحضـرَ الفقهاءَ واستفتاهم، فقال جميعُ مَنْ حضر: قد طَلُقَتْ، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فقد بقيَ ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تـتكلّم؟ فقـال الرَّجـل: يـا أميرَ المؤمنين، يقولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:٤]

فليس شيء أحسن من الإنسان. فقال المنصور: صدقتَ، وردَّها إلى زوجِها! [1]

(١) صفوة التفاسير، محمد علـي الصـابوني، دار الفكـر، بـيروت، ط٢، ١٤١٩هــ ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٥٥٢.

(٤)

احذر عدوّك الأخطر

في كتاب ربّك العزيز تحذيرٌ لك من عدوّ خبيث ماكر خَفيّ لا يُرى بالعين المجردة، ولا يُرى بالمِجْهر الدَّقيق، وإنّما تُرى آثارُ أفعالِه، فكأنّه الزّلزال الذي يضرب، ثمّ يتوارى، وكأنّه الثعبان الذي يلدغ، ثمّ ينسلّ انسلالاً، وكأنّه "الفيروس" الذي يفتكُ بالجسم، ويورثه الدَّاءَ العُضال.

إنَّ ربّك الحقَّ يحذّرك من الشَّيْطان عدوّك الأخطر الذي فتنَ أبويك، وأخرجَهما من الجنّة، والذي أضلَّ خلائق كثيرين عن الجادّة.

إنّه عدوّك الظاهر الجليّ الذي يُوغرُ صدورَ الناس بعضهم على بعض، ويزيّن لهم الخطيئة والشرّ، إنّه العدوّ الذي حذّر منه يعقوبُ عليه السلام ابنه يوسف، فنهاه أن يُعْلِمَ إخوته برؤياه، خشية أن يفتن الشيطانُ إخوته، ويملأ نفوسَهم بالحقد عليه:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥]

ومن أجل ذلك دعاك ربّك الحكيمُ أنت وعباده إلى قول الأحسن، وفعل الأحسن، واختيار الأحسن من الكلام حتى لا يُفْسد الشَّيْطانُ ما بينكم من مودة؛ لأنّه متربّص بكم ينْزَغ بينكم، ويشعل نارَ الكراهية في قلوبكم بسبب كلمة خشنة، أو ردّ قبيح، أو جدل عقيم، والكلمةُ الطيبة تقطع على الشَّيْطان الطريق، وتسدُّ عليه الثغرات، وتأسو جِراح القلوب، وتندّي جفافَها، وتحفظ حرَمَ الأخوة آمناً من

نزغاته ونفثاته[1]:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣]

ومن أجل ذلك يعرضُ عليك ربُّك الخبير مشهداً من مشاهد يوم القيامة؛ لترى فعل الشَّيْطان بمَنْ أطاعه، واتّبع خطواته، وترى هذا الظالمَ الذي يعضّ على يديه من الندم الشديد؛ لأنه لم يسلكْ طريقَ الرَّسول، بل سلكَ طريق صاحبه الذي صدّه عن طريق الرَّسول، وزيّن له الضّلال، وأعانَ عليه الشَّيْطان ذلك العدوّ الذي يقودُ إلى الانهزام والخذلان:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

وربُّك العزيز يكشفُ لك أنَّ الشَّيْطان أمكرُ الماكرين يُغْري الإنسان، ويزيّن له الفِعالَ المنكرة، فيصوّر القبيح جميلاً، والخبيث طيّباً، والباطل حقّاً، والهدى ضلالاً، حتى إذا صدّقه الإنسان واتّبعه تخلّى عنه وخذلَه، وأعلن أنّه بريءٌ من جريمة إغوائه، وأنّه يخاف عذاب الله وانتقامه، وهو كذّاب، فلو خافَ اللهَ لامتثل أمره، وما عصاه. ثمّ ماذا؟

ثمَّ يصير الشَّيْطان والإنسان الضَّال إلى النار الحامية المؤبّدة؛ لأنّها بيت كلّ ظالم فاجر:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط ١٥، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج٤، ص ٢٢٣٤.

ﮋ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﮊ [الحشر: ١٦-١٧]

أرأيتَ ما يفعل الشَّيْطان بِمَنْ يفتحُ له قلبه، ويثقُ بنصحه ووعده؟

إنّه يذكّر بقول العرب إذا دَعَوا على واحد منهم: باعَك الله في الإعراب؟ فقيل لأهل البادية: ما تفعلون بالعبد إذا بِيْع فيكم؟ قالوا: نُعْرِي جِلْدَهُ، ونُطيلُ كدَّهُ، ونُجيعُ كَبِدَهُ! [(١)]

والواجب على العاقل أنْ يأخذ حذره من هذا العدوّ الذي يجري من ابن آدم مجرى الدَّم، والذي قد أبان عداوتَه من زمن آدم، وقد بذل عمرَهُ ونفسَه في فساد البشر، والتحريش بينهم، والسَّعي الحثيث إلى إضلالهم بالخصومات والشَّحناء والفتن، وإتيانهم من قبل الشَّهوات حتى لَبَّسَ على عدد من الفقهاء والأدباء والفلاسفة وعامة الناس، ونشر البدعَ والشبهات فيهم[(٢)].

وقد بذل الشَّيْطان الرّجيم جهوداً كبيرة في إغواء الناس المعاصرين، ولا سيما المرأة قلب المجتمع النابض، فأغراها بالتبرّج والسُّفور، وعرّض كرامتها وعفّتها للخدش، فلبسَتْ ثياباً لا تسترُ شيئاً، وزاحمَت الرجال في الأسواق، وذهبَت الغَيْرة من محارمها، فصارتْ بلا سياج كأنّها ريشةٌ في مهبّ الريح.

فأين غيرة الأزواج من أعرابيّ رأى مَنْ ينظر إلى زوجته، فطلّقها غَيْرة، فلمّا عُوتب في ذلك قال أبياتاً كأنّما قُطعتْ من بُرْد الحكمة:

وأتركُ حُبَّها من غير بُغْضٍ ... وذاك لكثرة الشُّركاء فيهِ

(١) المختار من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي، د. إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩م، القسم الثاني، ص ٤٥٥.

(٢)تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ص ٢٣- ٢٥.

إذا وقــع الــذّبابُ علــى طعــامٍ رفعــتُ يــدي ونفســي تشــتهيهِ

وتجتنـــبُ الأســـودُ ورودَ مـــاءٍ إذا كــان الكــلابُ ولَغْــنَ فيــه!

وأين حياءُ النساء من عربية سقطَ خِمارُها عـن وجهها، فالتقطته بيـدها، وغطّـتْ وجهَها بيدها الأخرى حتى قيل فيها:

سـقطَ النَّصـيفُ ولم تُـرِدْ إسـقاطَهُ فتناولتْـــهُ واتّقتنـــا باليـــدِ!

وأعلى من ذلك وأجلّ مـا ذكـره الله سـبحانه في قصّـة ابـنتي شـيخ مَـدْين: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ﴾ [القصص:٢٥]

وفي الآية الكريمة من الأدب والعفّة مـا بلـغ بابنـة الشـيخ مبلغـاً عجيبـاً في التحفّظ والتحرّز[١].

كما تعاونَ الشَّيْطان الرّجيم مع أعداء الأمّة علـى الإثـم والعـدوان في إغـواء أبناء المسلمين وبناتهم، والنيل من قيمهم وثوابتهم عبرَ آلة إعلامية ضخمة، فزيّنـوا للجيل الجديد سليلِ الأسود أنْ يكونَ رقيقاً للشـهوات والجـنس والعـيش الرَّغيـد، حتى تحوّلَ الشّبل إلى ظبي وديع جَفُول، وتحوّلت الحُرّة إلى دُمية هامدة خامدة[٢].

فلا بدَّ من البراءة من الشَّيْطان وأتباعه، والتيّقنّ أنّ العداوةَ التي وقعتْ بين آدم عليه السلام وبين إبليس هي عداوة قائمة بين إبليس وبني آدم إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ

(١) حراسة الفضيلة، بكر بن عبد الله أبو زيـد، دار العاصـمة، الريـاض، ط٦، ١٤٢١هــ٢٠٠٠م، ص ١١٣-١١٦.

(٢) المنطلق، محمد أحمد الراشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٥، ١٤١٢هـ ١٩٩١م، ص ٥٦-٥٧.

عليها، والتاريخ البشريّ يصدّق حقيقة انقسام الناس إلى فريق هدى ورشاد، وفريق ضلال وغواية، وعلى ذلك فإنّه لا التقاء بين الفريقين في الدنيا، ولا في الآخرة[1].

والواجب على العاقل أنْ يوطّن نفسَهُ على الصبر على المغريات والشهوات وسائر المفاتن التي يجلس الشَّيْطان على أبوابها ونوافذها، ثمَّ يدخل من خلالها إنْ أذِنَ له صاحبُ المَنْزل بالدخول، وما أكثرَ الذين يأذنون له بالدخول في عالمنا المعاصر!

ولك أن تتصوّر ماذا يفعل الشَّيْطان إذا دخل؟ انظر إلى بيوت جيرانك كم أفسد علاقاتٍ كانت متينةً بين الأزواج، وانظرْ إلى بيوت أقاربك كم قطّع أرحاماً كانت موصولة، وانظرْ في قريتك ومدينتك كم نشرَ فيها خلاعةً وجريمة ومصيبة، كم أحدث فيها محلّاً للأفلام الخليعة، والكتب الفاسدة، والمقاهي العابثة، والسَّهر الفاجر. كم وكم؟

وانظرْ إلى بلدك كم نزغَ بين إنسان وأخيه الإنسان، وفتنَ بين صاحب وصاحبه، فقتلَ هذا أباه، وسفكَ هذا دمَ شريكِه، وذبحَ هذا أختـه، وحرقَ هذا خَصْمَهُ.

وانظرْ إلى عالَمِك المعاصر هذا كم فرعون من فراعنة هذا الزَّمن أغراه بقصف المدن الآمنة المطمئنة بالقنابل النووية، والأسلحة الكيماوية، وأغراه بتقتيل الأبرياء، وتشريد ملايين الناس، وتدمير مساكنهم، وتخريب ممتلكاتهم، وإهلاك حَرْثهم ونَسْلهم؟

فما الواجب إذن؟ الحذر منه؛ لأنّه عدوّك الأخطر!

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ط، د.ت. ص٩٤.

(٥)

عجباً لك تتقلّب وتتهرّب!

إنَّ ربَّك البصير يُخْبرك عن الإنسان غير المؤمن كيف يتقلّب تقلّباً عجيباً، وتتغيّر أفكارُه ومشاعرُه، ويتهرّب من الحقّ، ودليل ذلك أنّه وأقرانه إذا كانوا في البحر وأصابتهم الشّدة، وعصفتْ بهم الرّياح العاتية، وكادتْ مراكبُهم تغرق ذهبَ عن خاطرهم مَنْ كانوا يدعون من الآلهة، ولم يجدوا غيرَ الله مُغيثاً يغيثهم، فلمّا نجّاهم من الغرَق، وأنقذهم من الهلاك، وأخرجَهم إلى البَرّ أعرضوا وجحدوا نعمَ الله عليهم:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]

ثمَّ إذا أمدّ الله سبحانه وتعالى أحدَهم بأنواع النعم من صحة وأمن، ومال ومتاع، وزروع وثمار، ومراكب ومساكن، أعرضَ عن طاعة الله، وابتعدَ عن ربّه غُروراً وتكبّراً، وإذا أصابته الشدائد أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء:٨٣]

وعجباً لك أيُّها الإنسان الكافر تفزعُ من الضرّ إذا أصابك بالفقر أو المرض أو الهمّ، وتكثرُ من دعاء ربّك في جميع حالاتك: قاعداً وقائماً، ومضطجعاً وسائراً، وحين يزيلُ الله ما بك من ضُرّ ترجعُ إلى عصيانِك، وتتخذُ من دون الله آلهة، وتنسى ما كنتَ فيه من الجَهْد والبلاء أو تتناساه، فتمتعْ بهذه الحياة الفانية، وتلذّذْ فيها، وأنت على كُفْرِك عُمراً يسيراً، فمصيرُك إلى نار جهنّم، وأنت من المخلّدين فيها؛ لأنَّ هذا الفعلَ هو فعل المسرفين المجرمين:

- ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٢]

- ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزُّمَر:٨]

تأمّلْ كيف يصوّرك ربُّك الكريم بأسلوبٍ فنيّ بديع يتجلّى في تلك الإطالة في صُور الدعاء عند الضرّ: "دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً"، ثمَّ في ذلك الإسراع عند كشف الضرّ" مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ"، وإنَّ هاتين الصورتين تمثلان بالضبط وقوفَ التيار عن الجريان أمام الحاجز القوي، فقد يطول هذا الوقوف ويطول، فإذا فُتح الحاجز تدفّق التيار في سرعة، و "مَرَّ" كأن لم يقف قبلاً[١].

وعجباً لك تدعو بالشرّ على نفسِك وولدِك وأهلِك عندما تضجر كدعائك لها بالخير، ولو استجيبَ لك لهلكتَ، فَلِمَ تتعجّل بالدعاء بالشرّ دون النظر في عاقبته؟

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء:١١]

وعجباً لك إذا أغدقَ الله عليك من نعمه، وأفاض عليك من خيراته، ثمّ سلبَ منك تلك النعم فإنك تقنطُ من رحمة الله، ويشتدّ كفرُك، وإذا منحَك الله نعمةً بعد ما نزلَ بك من الضرّ والبلاء والفقر والمرض وضيق العيش فإنك تقولُ: انقطعَ الضُّرُّ والشرّ والسُّوء عني، وتفرحُ بالنعمة، وتغترّ بها، وتتعاظم على الناس:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود:٩]

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، ص ١٧٧.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى:٤٨]

وعجباً لك تظنّ أنَّ النعم التي يصبّها الله عليك صبّاً تفضّلاً منه وكرماً بعد ما نزل بك من البلاء والشدة وبعد تضرّعك وإنابتك إلى الله، تظنّ أنّ تلك النعم إنّما جاءتك بذكائك وتدبيرك وخبرتك، وجاءتك على علمٍ منك بوجوه الكسب وأساليب الاقتصاد، وليس الأمر كما تزعم، بل هي اختبار وامتحان لك، أتطيع أم تعصي، وما أكثرَ أمثالك الذين لا يعلمون أنَّ إعطاءهم المال هو اختبار لهم وابتلاء:

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمَر:٤٩]

وعجباً لك إذا نزل بساحتك الغنى واليَسار، وتنعّمتَ بالمال والبنين والجاه تقولُ بفخر وكِبْر: إنَّ ربّي أحسنَ إليّ وأعطاني؛ لأنّي أستحقُّ ذلك، ولم تدرِ أنَّ هذا العطاء هو اختبار لك وابتلاء، أتشكر أم تكفر.

وإذا ما اختبرك ربُّك الواجد الماجد، وامتحنك بالفقر وتضييق الرزق فتقول على وجه التشكّي من ربّك: إنَّ ربّي أهانني بتضييقه الرّزق عليّ، وقد غفلتَ عن الحكمة في العطاء والمنع.

ولم تعلمْ أنَّ الإكرام ليس بالغنى، وأنَّ الإهانة ليستْ بالفقر، بل الإكرام بطاعة الله، والإهانة بمعصيته:

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر:١٥-١٦].

أرأيتَ ما أعجبَك لا تملّ من دعائك لنفسك بالخير والصحة والغنى والجاه، وإذا أصابك فقر أو مرض فإذا أنت عظيم اليأس قانطٌ من رحمة الله، وإذا أعطاك الله الغنى والصحة بعد الشدة تقول: هذا بسعيي واجتهادي وذكائي وشهاداتي، ولا أعتقد أنَّ القيامة ستكون، وعلى فرض أنَّ القيامة حاصلة فسوف يُحْسن إليّ ربّي كما أحسنَ إليّ في الدنيا! ولسوف تعرفُ حقيقة عملك وطبيعة إجرامك أنت وأقرانك الكفّار.

فما أعجبَك تتقلّب من حال إلى حال، فتعرض وتستكبر وتشمخ بأنفك تكبّراً وترفّعاً إذا أنعم الله عليك، وإذا أصابك المكروه فزعتَ تدعو وتكثر من الابتهال:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٩-٥١].

وليتك تعلم أنَّ الله الذي خلقَك يعلمُ ما يجول في قلبك وخاطرك، ويحيطُ بأسرارك وأخبارك، ويطّلع على مشاعرك وخفاياك ونواياك، فهو سبحانه أقرب إليك بعلمِه من حَبْل وريدك، من العِرْق الكبير الذي في عُنقك المتّصل بقلبك، وقد وكَّلَ بك - مع علمِه بأحوالك- مَلَكين يحفظان عملك، ويكتبان أثرك؛ لتقومَ عليك الحجّة، فما تتكلّمُ كلمةً من خير أو شرّ إلا وعندك مَلَك حاضر يرقبُ قولَك ويكتبُهُ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨].

أتعرفُ لِمَ تتقلّب تقلُّبَ الحَبّ في الرَّحى، وتميلُ كالرّيح إذا مالت؟

إنّه الهوى الذي يطغى على النفس، ويجثم على الدّماغ، فهو عن الخير صادّ، وللعقل مُضادّ، يُنتجُ من الأخلاق قبائحَها، ويُظْهر من الأفعال فضائحَها، والهوى إنّما سمّي هوى؛ لأنّه يهوي بصاحبه، وهو هوان(١).

ألا ترى نعمَ الله عليك، وهي تغمرُك من فوقك ومن تحت قدميك، وعندك الدنيا بحذافيرها، وأنتَ لا تشعر، تمشي على قدميك، وقد بُترتْ أقدام، وتعتمدُ على ساقيك، وقد قُطعتْ سُوق، وتنامُ ملءَ عينيك، وقد أطارَ الألَمُ نومَ الآخرين، وتملأ معدتك من الطعام الشّهي، وتكرعُ من الماء البارد، وغيرك عُكّر عليه الطعام، ونُغّص عليه الشراب، ألا تتفكّر في سمعك، وقد عُوفيتَ من الصَّمم، وفي نظرك، وقد سَلِمْتَ من العمى، وفي جلدك، وقد نجوتَ من البرص والجذام، وفي عقلك، وقد برئت من العتَهِ والجنون(٢).

إنّك لا ترضى أنْ تبيعَ بصرَك بوزن جبل أحد ذهباً، ولا تشتري بلسانك قصورَ الزهراء فتكون أبكم، ولا تقايض بيديك عقود اللؤلؤ والياقوت لتكون أقطع، فتذكّرْ وتفكّر(٣).

أما آنَ لك أن تشكر نعم الله التي تتقلّب فيها، وهي مُستوجبة للشكر، جديرة بالثناء والحمد، وفي شكرها اعترافٌ بالجميل، وأداء الحقّ لمستحقّه، واستدامة لها،

---

(١) أدب الدين والدنيا، أبو الحسن الماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص ٢٣-٢٤.

(٢) لا تحزن، عائض القرني، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، ص ١١-١٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١١-١٢.

واستزادة منها، وفائدة الشكر تعود عليك، وربّك غنيّ عنك وعن العالمين[1].

والنعم التي تتقلّب فيها هي ابتلاء وامتحان كلّها، والناس جميعاً في قاعة امتحان كبيرة تشمل الكون كلّه، وهناك مراقبون يسجّلون كُلَّ صغيرة وكبيرة، ومدّة هذا الامتحان من لحظة البلوغ والتكليف إلى لحظة الموت، وإذا كان الطالب يعلمُ كم بقي من الوقت، فإنَّ الإنسان في الدنيا لا يدري كم بقيَ من عمره، ولو كانت النعمة إكراماً لكان الرُّسل أغنى الناس، ولما كان للكفار شيءٌ من الدنيا[2].

ولتعلم أنَّ الجحود ونُكران الجميل هو شرّ ما يُبْتلى به المرء، إذ يغدو غيرَ مُبالٍ بأنعم الله، ولا مُهتمّ بما وهبه من أفضال، فيبدّدها في غير طائل ولا منفعة، فتتحوّل النعمة إلى نقمة، والمنحة إلى محنة، وتذهب الصحة والثروة، وتضيع آلاء الله عبثاً،[3] ومَنْ دخلتْ عليه النعمة دون أنْ يشكر خرجتْ من عنده دون أنْ يشعر!

وعجباً لك تتحدّث بإفاضة وإسهاب عن أطايب الطعام، وألوان الشَّراب، وأزياء الموضة، وأبطال الملاعب والرّياضة، وأخبار الفنّانين فلان وفلانة، والرَّواتب والترقيات، وأنواع الهواتف، وعالم السيارات، والمستحدث في الأجهزة والآلات، ولا تتحدّث عن نعم الله وصنائعه وآلائه وآياته الباهرة؟! والله أحقّ بالذّكر والتحميد والتمجيد.

فعجباً لك، حتَّامَ تظلّ تتقلّب وتتهرّب؟

(٦)

لا تَكُنْ كمثل هذا

(١) إسلامنا، السيد سابق، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ص ٧٣-٧٥.

(٢) الهدي النبويّ في الرقائق، د. شرف القضاة، دار الفرقان، عَمّان، ط٦، ١٤٢٥هـ٢٠٠٥م، ص ١٣-١٩.

(٣) إسلامنا، السيد سابق، ص ٧٦.

ﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬﮔﻬ

لا يزال ربُّك الحيّ القيوم يشرّفك بخطابه، فيحدّثك في محكم كتابه عن أخيك الإنسان الحائر الخائر، ويحذّرك أن تكونَ مثله، فتجمع صفاته في نفسك ومسلكك وحياتك، فتضلّ وتشقى.

وقد جلَّى لك ربُّك اللطيف الرّؤوف تلك الصفاتِ لتعرفها وتعرضها على نفسك، فإنْ كانت فيك خَصْلة منها فسارع إلى التخلّي عنها، وإنْ لم تكن فيك فاحمدْ ربَّك، واسأله بملء فيك أنْ يهديك الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضَّالين.

والصفات الذميمة هي:

١- كُفْر النعمة وجحودها:

إنَّ نعمَ الله التي تغمر الإنسان كثيرة عظيمة، وإنَّ من أعظمها نعمة الحياة، والحياة الأولى معجزة، وسرّها اللطيف ما يزال غيباً يحار العقل البشريّ في تصوّر كنهه، وفي الموت سرّ آخر يعجز العقل البشريّ عن تصوّر كنهه، وهو يتمّ في لحظة خاطفة، والحياة بعد الموت وهي غيب من الغيب، ولكنّ دليلها حاضر من النشأة الأولى، وفيها كلّها مجال فسيحٌ للتأمّل والتدبّر، ولكنَّ الإنسان الجاحد لهذه النعم لا يتأمل ولا يتدبّر[1]، بل يصل به الكفرُ إلى أن يجعل لله ولداً فيزعم هو وأقرانه أنَّ الملائكة بنات الله، وذلك جهل بالله، وتحقير لشأنه سبحانه:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ [الحج:٦٦]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٤، ص٢٤٤١.

- ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزُّخرُف:١٥]

فلعنةُ الله على كلّ مَنْ يتمادى في الكفر والعصيان، ويجحد نعم الله عليه وإحسانه إليه، ولا يعرف من أي شيء خلقَهُ ربّه؟ خلقه من ماء مهين حقير، وقدّره أطواراً في بطن أمّه، ثمَّ سهّل له الولادة، ثمّ أماته، وجعل له قبراً يُوارى فيه إكراماً له، ثمّ حين يشاء الله إحياءه يُحييه بعد موته، ويبعثه للحساب والجزاء:

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس:١٧-٢٢].

فهذا الإنسان جاحد لنعم الله، يذكر المصائب وينسى النعم، وهو شاهد على كُنوده، لا يقدر أن يجحد هذا الكنود، وهو شديد الحبّ للمال حريص على جمعه:

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨]

٢- الظلم والجهل:

وجحودُ النعمة ظلم للنفس، وتعدٍّ على حدود الله، فالظالمُ يشكو في الشدة ويجزع، ويجمع في النعمة ويمنع، ولو نظرَ في نفسه، أو تأمّل ما حوله لرأى نعم الله التي لا يطيقُ حصرها، ولا يستطيع عدّها وإحصاءها:

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]

والعجب أنَّ الإنسان لّما تحمّل الأمانة، وهي التبعة والعهد والمسؤولية التي تمكّنه من الاستخلاف في الأرض، وعبادة الله وحده، والقيام بالتكاليف الشرعية، لّما تحمّل الأمانة كان شديدَ الظلم لنفسه، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور، ذلك لأنّ الأمانة جدّ جسيمة، ومسؤولية خطيرة أشفقتْ منها السمواتُ والأرض، وامتنعتْ عن حملها، فهو ظلوم؛ لأنه يتعدّى الحدود، وهو يعرفها، وجهول؛ لأنه يتعدى تلك الحدود، وعنده أمانة العقل التي تهديه إلى معرفة تلك الحدود، فلا عذرَ له في جهلها[1]:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢]

والإنسان يكون ظالماً حين يتّبع هوى نفسه، ويستكبر على ربّه من أجل مالٍ يجمعه، وثروة يحصّلها، وغنى يتنعّم به، وقوّة يتمتّع بها، وجاهٍ يسود به، ولسوف يكون مصيره إلى الله فيجازيه على أعماله، ويحاسبه على ظلمه وطغيانه:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق:٦-٨].

انظرْ إلى الواقع الذي تعيشه اليوم وتأمّل: إنَّ ثروات العالم المعاصر في أيدي عشرة في المائة من البشر، والتسعون في المائة الباقون فقراء مُعْدمون مسحوقون، أي أنّ ثروات ستة مليارات إنسان يتحكّم بها نحو (٥٠٠) مليون، ومن هؤلاء خمسون

(١) الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، ص٣٨.

ألف إنسان يعدّون أثرياء العالم، ومن هؤلاء خمسون شخصاً تزيد ثروةُ كلّ منهم عن عشرة مليارات دولار!

وهؤلاء الأثرياء والأغنياء ورجال الأعمال وسيدات الأعمال من أظلم الناس، وأطغاهم، وأشدّهم تكبّراً على الله، واستغناء عنه، وأكثرهم إسرافاً وتبذيراً.

وأفعالهم الخبيثة في نشر الإلحاد والفساد ظاهرة للعيان، وقصورهم شاهقة في الجزر والمنتجعات، ويخوتهم ماخرة في المياه، وأرصدتهم زاخرة في البنوك، وأثمان سياراتهم وأنواعها ممّا لا يصدّقه أحدٌ من الفقراء، فهي فوق الخيال! "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى".

٣- العَجز والتعجّل:

في الإنسان ضَعْف سببه العجز عن مخالفة هواه، وقلّة صبره عن اتّباع الشهوات، أمّا ضعفه في قلّة تحمّله للتكاليف الشرعية فقد يسّر الله عليه الأحكام، ورفع عنه الحرج والعُسْر والضيق، وخفّف عليه كثيراً، وما أمره بشيء إلا بما يوافق فطرته وتكوينه:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النساء:٢٨]

والإنسان مُرَكَّب على العَجَلة؛ يستعجل حصولَ الأشياء، وإنْ كانتْ مُضرّة، حتى إنّ الإنسان المؤمن ليقع في نفسه سرعةُ الانتقام من المستهزئين بالدِّين والمحاربين له، ويستعجل ذلك، وسينتقم الله من كلّ مَنْ عصاه، وحارب دينه، وظلم عباده، ولكنْ إذا حان الأوان:

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٧]

والإنسان الذي خلقه ربّه في مشقة وشدّة من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه ومعاشه، وحياته، وموته، ويقاسي أنواع الشدائد من وقت نفخ الرُّوح فيه إلى حين نزعها، فإنّه لا يوجّه هذه الطاقاتِ من الشدّة والتحمّل، ولا يحتسبها عند ربّه ولا يصرّفها ابتغاء مرضاته، بل يجحد بقدرة الله، ويكذّب بالبعث، ويظنّ أنَّ الله لا يقدر عليه لشدّته وقوّته، ويفتخر بإنفاق الأموال رياء وسمعة، ويحسب أنَّ الله لا يراه، والله هو الذي جعل له عينين يبصرُ بهما، ولساناً ينطقُ به، وشفتين يطبقُهما على فمه، ويستعيُن بهما على الأكل والشرب والكلام، وهو الذي بيّنَ له طريقي الخير والشرّ:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:٤-١٠].

٤- الإمساك والتقتير:

في الإنسان الجاحد المعاند صفةٌ خسيسة هي البخل والشّح، والقرآنُ يقصّ علينا من نبأ المشركين المعاندين الذي اقترحوا على النبيّ ﷺ أن يأتيهم بالخوارق والمعجزات، ويبيّن لهم أنّهم لو كانوا يملكون خزائن رزق الله ونعمه التي أفاض الله بها على عباده لبخلوا بها، وامتنعوا عن الإنفاق خوفاً من نفادها؛ لأنَّ نفوسهم منطوية على الإمساك والتقتير:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]

والبخل آفةٌ خطيرة، ودرجات كثيرة أشدّها أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسكُ المال، ويَمْرض فلا يتداوى، ويشتهي الأكلة فيمنعه منها البخل، ويشتهي الثوب الجميل فيمنعه منه البخل، ولا براءةً من البخل إلا لَمَنْ أدّى الواجب بالشَّرع، وهو إيتاء الزكاة، والإنفاق على العيال(١).

ولا قيمة للحياة إلا بالسّخاء والبذل والعطاء، فصنائع المعروف تقي مصارع السّوء، والحرص احتقانٌ سينجم عنه ذات مرّة انفجار وانتحار، وما أحسنَ قولَ الشاعر:

مَنْ ليس يسخو بما تسخو الحياةُ فإنّه أحمق بالحرصِ ينتحرُ!

٥- الجَدل والمراء:

ومن صفات الإنسان الجاحد أنّه يكثرُ من الجَدَل، ويتحذلق في الكلام، ويأتي بالأغلوطات، ويشتدّ في الخصومة، ولا ينيب لحقّ، ولا ينْزَجر لموعظة.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في القرآن الأمثال الكثيرة، والمواعظ المؤثّرة، والشواهد المتنوّعة، ولكنَّ الإنسان المغرور الجاهل لا يتّعظ بها، بل يجادل ويماري، ويستعمل طاقاتِه العقليّة، ومخزونهُ الفكريّ حتى يصبح أكثر المخلوقات جدلاً:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، علّق عليه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ص ٢٠٤- ٢٠٧.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقد نهى النبيّ ﷺ عن الجدال بغير دليل، ولا قصد صحيح؛ لأنّه يقسّي القلب، ويفسد العلاقة بين الناس، ويملأ النفوس بالشحناء، ورغّب النبيّ ﷺ في تركه، وضمنَ بيتاً في الجنّة لِمَنْ تركه فقال: «أنا زعيمٌ ببيت في ربض الجنّة لِمَنْ تركَ المراء، وإنْ كان مُحقّاً[1]».

ولعلَّ من أهمّ الأسباب الصَّارفة عن أخذ العبرة والعظة، على الرّغم من قوّة تأثير كلام الله في كتابه الحكيم، هي الذنوب والمعاصي التي تَحْرم الإنسان من نور العلم الذي يقذفه الله في قلب العبد، وتورثه وحشةً وظلمةً وغفلةً يجدها العاصي بينه وبين نفسه، وبينه وبين الناس، وتطفئ نور عقله، وتعمي بصرَ قلبه، وتجعله أسيراً للشيطان، وسرُّ الذنوب والمعاصي هو شدّة الشهوة الدنيويّة؛ إذ إنَّ مَنْ غلبت عليه شدّة الشهوة لحبّ الدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومَنْ رضي بالقنوع زال عنه الخضوع[2].

فأنى له أنْ يتعظَ ويعتبر، وقد أصبح قلبُه كالحجارة أو أشدّ قسوة؟ وأصبحتْ نفسُه مفترسة، أو أشدّ من الوحوش فتكاً؟

وصاحبُ القلب القاسي لا تؤثّر فيه مواعظُ الموت، ولا مناظرُ الدماء

---

(١) رواه أبو داود ج٥، ص ١٥٠، وهو في صحيح الجامع، حديث رقم ١٤٦٤.

(٢) بستان العارفين، النوويّ، نقّحه وعلّق عليه: محمد الحجار، دار الدعوة، حلب، د.ط، د.ت، ص ١٠٢-١٠٣.

والأشلاء في الحوادث، ولا رؤية الأموات والجنائز، ولا بكاء الثكالى والأرامل واليتامى، وربّما حملَ الجنازة بنفسه، وواراها التراب، ولكنّ سيرَهُ بين القبور كسيره بين الأحجار[1].

٦- الهَلَع والفَزَع:

ومن الصّفات التي جُبِلَ عليها الإنسان شدّة الحرص على الدنيا، والضَّجر من الشدائد، وقلة الصبر على البلاء، فإذا نزل بساحته مكروه من فقر أو مرض أو خوف أو همّ استولى عليه اليأس والقنوط، وبالغ في الجزع، وتراه مرتعدَ الفرائص، مختلَّ التوازن، شاردَ الذهن، شاخصَ البصر، لا يلوي على شيء.

وإذا أصابه خيرٌ من صحة وعافية، وأمن وطمأنينة، وغنى وسَعة، كان مبالغاً في المنع والإمساك، ولم ينفق ممّا آتاه الله، ولم يتصدّق، ولكنَّ القرآن استثنى طائفة رائعة من فعل هذا الإنسان الهَلوع الجَزوع المَنوع وهم المصلّون؛ إذ إنَّ صلاتهم هي حزام الأمان لهم من هذه الصفات الذّميمة التي تحطّ بإنسانية الإنسان:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

والصلاةُ أفضل وسيلة تهذّب النفس، وتزكّي الخلق، وتجدّد الرُّوح، فهي للمصلّي عروة وثقى يعتصم بها، وبَلْسم جروح، وأمن للخائف، وقوّة للضعيف، ورياضة للبدن، وسلاح للأعزل يستعينُ بها على نوائب الدهر، وظلم الظالمين،

(١) ظاهرة ضعف الإيمان، محمد صالح المنجد، دار الوطن، الرياض، ط٣، ١٤١٩هـ، ص ٩.

وهي تطّهرُ النفس من الصفات السّيئة التي غلبتْ على أهـل المـادة، حتـى صـارت الدنيا أكبرَ همّهم، ومبلغَ علمهم[١].

وأهنأُ حياةٍ للقلب تلك التي تكونُ في ظـلال المحاريـب، إذ تُحـرِّك في الإنسـان معاني الرجاء والخوف معاً، وتجعله أكثر تأثيراً في الناس، وتمنحه فيضاً من السَّكينة، وفيضاً من البشرى، وقد علمتَ كيف أنَّ الله تعالى بشّر نبيّه زكريا بيحيى، وهو قائم يصلي في المحراب[٢].

وربّك التّوّاب الرّحيم إذ يحـدّثك عـن الصـفات القبيحـة لهـذا الإنسـان إنّمـا يوجّهك لكي لا تكون مثله؛ لأنه مريض القلب، ملتاث العقل، مُضـطرب الـنفس، فاسد الذوق، ولو أنّه طهّر نفسه، وفجّر ينابيع الخير في شعابها لسـلكتْ بـه طريـق الحقّ، وفتحـتْ عليـه أبـواب البركـة، وخلّصـتْه مـن الجحـود والنكـران، والظلـم والجهل، والعَجَلة والجدل، والفزع والمنع.

ذلك لأنَّ سعادة المرء أو شقاوته تنبعُ من نفسه، فهي التي تعطـي الحيـاة لونهـا البهيج، كما يتلوّن السائلُ بلون الإناء، أو تعطي الحياة لونها الأسود القـاتم المتشـح بالحزن واليأس، وهي التي تصنع الأفكار والمشـاعر، فـإذا سـاورتك أفكـارٌ سـعيدة كنتَ سعيداً، وإذا تملّكتك أفكارٌ شقية غدوتَ شقيّاً، وإذا خامرتْـك أفكـارٌ مزعجـة

---

(١) الحياة في محراب الصلاة، مصطفى مشهور، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص ١٦- ٢٠.

(٢) مجموعة رسائل العين، محمد أحمد الراشد، د. عـادل الشـويخ، دار البشـير، طنطـا، ط١، ١٤٢٥هــ ٢٠٠٤م، ص ٥٤- ٥٥.

꧁꧂

تحولتَ إلى جبان خائف، وإذا تغلّبتْ عليك هواجسُ السّقم والمرض بتَّ مريضاً سقيماً[1].

والنفسُ وحدَها هي مصدرُ السُّلوك والتوجيه حسب ما يكمن فيها من أفكار، ويصبغها من عواطف، ويعتمل فيها من مشاعر، فعندما تركب الطائرة، وترتفع عن سطح الأرض تتغيّر الأشكال والأحجام في عينيك، وتكون نظرتُك إلى ما دونك أوسع مدى، وأرحب أفقاً، وأنت أنت لم تتغيّر، وكذلك إذا ارتفعتَ في مدارج الارتقاء الثقافيّ والكمال الخلقيّ، فإنّك ستُغيّر كثيراً من أفكارك وأحاسيسك، وتبدّل أحكامَك على الأشخاص والأشياء، وبذلك تستطيع أنْ تصنع من نفسك مثالاً رائعاً إذا أردتَ[2].

(٧)

(١) جدد حياتك، محمد الغزالي، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٧.

طائِرُك في عُنقِك

إنَ ربَّك الحَسيب الرَّقيب يحمّلك المسؤوليةَ الكاملة عن عملِك، فأنت مرهونٌ به، ومجزيٌّ عليه، وهو ملازمٌ لك لزومَ القِلادة للعنق، فلا ينفكُّ عنك أبداً.

فعملُك طائرٌ يلازمُك ملازمةً تامّة ولا يفارقك، بل يحيطُ بعنقك إحاطة السُّوار بالمِعْصَم.

ولسوف يُخْرج لك ربُّك الواحدُ الديَّان كتابَ عملك، ويقول لك: اقرأ كتابَك، واشهدْ على نفسِك بنفسك، فإنّك لا تحتاجُ إلى شاهد أو حَسيب، والمهتدي ينتفعُ من هدايته، والضّالّ يرجعُ ضلالُه عليه، ولا يحملُ أحدٌ ذنبَ أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسِه، ولا عذابَ إلا بحجّة:

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

وفي هذه الآية الكريمة استعارةٌ لطيفة حيث استعار الطائرَ للعمل؛ لأنَّ العربَ كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير، فكانوا يسمّون الخير والشّر بالطائر.

وقوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ "مَثَلٌ لما كانت العربُ تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها، فأعلمَهم الله جلّ ثناؤه أنَّ كلَّ إنسانٍ منهم قد ألزمه ربّه طائره في عنقه نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر، وشقاءً يورده سعيراً، أو كان

سَعْداً يورده جنات عدن"[1].

فلا تكن من الأعمال مُفْلساً، ولا من الاجتهاد خالياً، وتيقّنْ أنَّ العلمَ المجرّد لا يأخذُ اليدَ، ولا يُنَجّي صاحبه، فلو كان مع رجل عشرةُ أسياف، وهو شجاع، وهاجمه أسدٌ عظيم مَهيب، وأراد الفتكَ به، فلا تدفعُ هذه الأسلحةُ خطرَ الأسد إذا لم يستعملها الرَّجلُ الشجاع، ولو قرأ رجلٌ مائة ألف مسألة علمية وتعلّمها، ولم يعملْ بها، لا تفيدُه إلا بالعمل، ولو قرأتَ العلمَ مائة سنة، وجمعتَ ألف كتاب لا تكونُ مستعدّاً لرحمة الله إلا بالعمل[2].

وكلّ ما تكدحُ من عمل، وتُجْهدُ فيه نفسَك طوالَ حياتك فإنّك سائرٌ به إلى ربّك سريعِ الحساب، وستلاقي جزاءَ كَدْحك من ثوابٍ وعقاب، فإن كان عملاً صالحاً حُوسبتَ حساباً هيّناً سهلاً، وأخذتَ كتابك بيمينك، وكنتَ من السُّعداء، وإن كان عملُك غيرَ صالح أخذتَ كتابك بشمالك من وراء ظهرك، وصحتَ بالويل والثبور، واللهُ مطّلعٌ عليك لا تخفى عليه خافية من شؤونك، استمعْ إلى ربّك اللطيف الخبير، وهو يناديك:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ

---

(١) تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، هذّبه وحققه: د. بشار عواد معروف، وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ج ٥، ص ١٥.

(٢) أيها الولد المحبّ، أبو حامد الغزالي، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ص ٢٥- ٢٧.

﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:٦-١٥].

فالأمر واضح جلّي: ليس لك إلا ما حصّلتَ من عمل صالح، وما كسبتَ من خير، وما أصبتَ من حسنات، وكلُّ سَعْي سعيتَهُ سيُعرض يومَ القيامة، وسوف تراه في ميزانِك، وستُجزى به الجزاءَ الأتمّ الأكمل، فلا يُحْمَل عليك وِزْرُ غيرك، ولا يَحْصُل لك من الأجر إلا ما قدّمتَ لنفسك:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم:٤١]

والأمرُ يوم القيامة ليس كما تشتهي وتحبّ وتتمنى، فلن تشفعَ لك الأشياء التي كنتَ تركنُ إليها من دون الله، لن يشفعَ لك مالُك، ولا عيالُك، ولا أصحابُك، ولا هواك، ولا مصنُعك، ولا قصرُك، بل الأمر يومئذ لله مالك الدنيا والآخرة الذي يعطي مَن اتّبع الهدى، وترَك الهوى:

﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾ [النجم:٢٥]

ومن رحمة ربّك العفوّ الغفور أنّه دلَّكَ على النجاة من الخسارة الفادحة، وبيّن لك الفئةَ الناجية من الهلاك والعذاب، وهي الفئة المؤمنة العاملة؛ لتنتميَ إليها، وصرّحَ بصفاتها؛ لتأخذَ بها، وهي صفات جليلة أربع:

١- الإيمان الصادق بالله الواحد الأحد، والإقرار برسالة محمّد ﷺ.

٢- العمل الصالح القائم على الإخلاص وموافقة الكتاب والسّنة.

٣- التواصي بالحق والخير والمعروف، والحرص على ثوابت الأمة.

٤- التواصي بالصبر على الطاعات والشدائد والأذى.

يقولُ تبارك وتعالى:

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وربّك الرّشيد إذ يقسم بالعصر والزّمان والدهر يلفتُ فكرك إلى اغتنام عمرك، فهو عَصْرُك الخاصّ بك، والذي لا يكون عصراً ذهبيّاً لك إلا بهذه الصفات الأربع:

الإيمانُ وهو أساس لعصر العمر وحسن استثماره، والصالحاتُ وهي نتاج عصر العمر، وثمرة الإيمان الباعث المحرّك، والتواصي بالحقّ وهو الحفاظ على حقائق الكتاب والسنة بالتعلّم والمدارسة والتناصح، والتواصي بالصبر وهو التعاهد بين المؤمنين على التسامي في عالم الفضائل، واستمرار الثبات على الحقّ، ومواجهة الباطل وجنوده، فاعصِرْ عمرَك، واعصِرْ وقتك، وابذلْ أقصى جهدك؛ لكي تكون أشبه بالماء الثّجّاج النافع النازل من السّحب المُعْصِرات عندما تُعْصرُ عَصْراً[1].

والمبادرةُ إلى العمل الصَّالح زادُ السَّائر في طول العصر وعرضه، فإذا زاد من الحسنات فإنها تمحو السّيئات كما يمحو ضوءُ الشمس ظلامَ الليل، وإذا اقترن العملُ بعمق الإخلاص، وقوّة اليقين، كان أذكى للنفس، وأنقى وأطهر، وكانت المغفرةُ ماحقةً للذنوب جميعاً، ولهذا كانت التوبةُ مقترنةً دائماً بالعمل الصَّالح[2].

---

(١) الخطة البراقة لذي النفس التواقة، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ص ١١- ١٧.

(٢) إسلامنا، السيد سابق، ص ٩٧.

(٨)

أحقّ الناس بحسنِ صَحابتِك

قد تعتقد أنَّ أحقَّ الناس برعايتك وعنايتك واهتمامك هي زوجتك الـتي تمـلأ عليك بيتَك حبّاً ومسرّة، وقد تعتقدين أنّه الزوج الغالي النبيل، وقد تعتقـدان أنّهـم الأولادُ تفاحاتُ القلوب، والأكبادُ التي تمشـي علـى الأرض، وقـد تعتقـدان أنّهـم الأصحابُ والصّاحبات الذين يمنحون الحياة حلاوة وبهجة، وقد تعتقد أنّه المسؤولُ الرفيع ذو الجاه والمال الذي تهتفُ له الدنيا، وتصفّق له الجماهير!

ولكنَّ ربَّك البَرَّ الودودَ يبيّن لك أنَّ أحقّ الناس بحسن صحابتك هم والـداك؛ لأنّهما سببُ وجودك، ومحضنُ تربيتك، وكهفُ أمنك، وشاطئُ مسـرّتك، وينبـوعُ سعادتك، ولهما عليك عظيمُ الفضل الذي لا يخفى، ووافرُ الجميل الـذي لا يُنْكـر، وحقّهما عليك هو أجلّ الحقوق وأعظمها بعد حقّ الله ﷻ.

من أجل ذلك وصّاك بالإحسان إليهما غايةَ الإحسان، فلـهما عليـك واجـبٌ مفروض، واجبُ الحُبّ والإكـرام والكفالـة، ولـو كانـا مشـركين يبـذلان كُـلَّ مـا وسعهما لتشركَ بالله، فلا تطعهما، فـلا طاعـةَ لمخلـوق في معصـية الخـالق، ولكـنْ أحسنْ إليهما، وزدْ في برّهما، وأكرمْ مثواهما، وإن كانا مؤمنين فلهما عليك واجبُ الإيمان وهو الطاعة والاتباع، والله سيؤتيك الأجرَ والثواب يومَ ترجعُ الخلائقُ إليه، مؤمنُهم وكافرُهم، بَرُّهم وفاجرُهم، فيجازي كُلّاً بما عمل:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ

﴿مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨]

وربّك الشّكور إذ يوصّيك بالإحسان الفائق بوالديك كليهما فإنّه يخص والدتك بالتوصية، فهي التي حملتك جنيناً في بطنها، وهي تزدادُ بحملك كلَّ يوم ضعفاً على ضعف، وأنت تزدادُ في بطنها ثقلاً وحجماً، وتعيش على حساب غذائها وصحتها تسعة أشهر، حتى إذا وضعتْكَ طفلاً، واستهللتَ صارخاً رعَتْك وأرضعتْك في تمام عامين. فما لربّك عليك، وما لوالديك عليك؟

لربّك الخالق البارئ المصوّر أنْ تشكرَهُ على نعمة خَلْقِك وحياتِك وإيمانِك، ولوالديك عليك أنْ تشكرَهما على نعمة رعايتك وتربيتك وتحمُّل تكاليف عيشك، تشكرُهما ولو كانا مشركين يدعوانك بكلّ قوة إلى الكفر والشرك، وتصاحِبُهما في الدنيا معروفاً، وتخفضُ لهما جناح الذّلّ من الرّحمة، ولنْ تستطيعَ أن توفيَهما حقَّهما، بل لا تستطيعُ أن تؤديَ حقّ زفرة واحدة من زفرات أمِّك!

وأمّا أنت فعليك أنْ تسلكَ طريقَ مَنْ رجعَ إلى الله بالتوحيد والطاعة، وطريقَ مَنْ أنابَ وأحسن إلى والديه:

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان:١٤-١٥].

جاء في الحديث الشَّريف عن أبي هريرة ﷺ: "أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، مَنْ أحقّ الناس بحسن صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: ثمَّ أبُك"[1].

وقد جعل نبيّك محمّدٌ ﷺ رعايةَ والديك جهاداً تُثاب عليه، وأنت تعلم أنَّ الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، ورأس الأعمال، وأساس التضحية:

عن عبد الله بن عمرو ﷺقال: "جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فاستأذن في الجهاد. فقال: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد"[2].

ويضربُ لك ربّك العليم مثالين من عالم الإنسان عالَمِك، الأول يبيّن حال الإنسان البارّ بوالديه، والثاني يبيّن حال الإنسان العاقّ لوالديه، فالأوّل فهمَ مُراد الله تعالى، وعمل بتوصيته، وعرف أنّ رضا الله تعالى في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما، وعرف مقدارَ المكابدة التي عصفتْ بأمّه في حمله وولادته وإرضاعه.

ولّما شبَّ وبلغ كمالَ قدرته وعقله، وبلغ أربعين سنة من النُّضج والرشد دعا ربّه لِيُلْهِمَهُ شكر نعمته عليه وعلى والديه، ودعا ربّه لكي يوفّقَه للعمل الصّالح الذي يرضي ربّ العالمين، ودعا ربّه أن يجعل ذرّيته ونسله صالحين.

ثمّ أعلن توبته لربّه من جميع الذنوب، وأعلن أنّه من المسلمين المستمسكين بدينهم:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من أحقّ الناس بحسن الصحبة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الوالدين.

شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦].

أمّا الإنسان الثاني فهو وَلَدٌ فاجر يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان: أُفٍّ لكما وقبحاً، أتعدانني أنْ أُبعث بعد الموت، وقد مضَتْ قرون من الناس قبلي، ولم يُبعثْ منهم أحد؟ وأبواه حريصان عليه يسألان الله أن يُغيثه ويهديَه للإسلام، ويُلحّان عليه: ويلك آمنْ، إنَّ وعدَ الله صدق لا خلفَ فيه، فيقول ذلك الشّقي: ما تقولان إلا خرافات وأباطيل سطّرها الأولون.

وهذا الفاجر الشّقي وأمثاله هم المجرمون الذين وجب عليهم العذاب في أمم جنيّة وإنسية:

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٧-١٨].

وربّك البَّر الرّحيم وصّاك بوالديك، ولم يوصّهما بك؛ لأنّهما يرعيانك بالفطرة، ويبذلان لك من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما، ومن كلّ ما يملكان من عزيز أو غالٍ في غير تأفّفٍ ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان،

بل في نشاطٍ وفرحٍ وسرورٍ كأنّما هما اللذان يأخذان! وأمّا أنت فوصّاك ربّك بهما وكرّر الوصية في كتابه العزيز لتلتفتَ إلى هذين الإنسانيين المضحيين الذاهبين في أدبار الحياة بعدما سَكبا عصارة العمر والرُّوح والأعصاب من أجلك، ومن أجل مستقبل حياتك! [1]

ولعلّك تقولُ في نفسك بعد هذا البيان المؤثّر، وقد ازددتَ حبّاً لوالديك، واستشعرتَ أريحيّة في برّهما: وما علامات برّ الوالدين التي تجعلني في زمرة البّارين الطائعين؟ إنّها علاماتٌ كثيرة فاضتْ بذكرها الكتب[2]:

١- تخيُّرُ أجمل الكلمات، وألطف العبارات عند مخاطبتهما، وتجنّب زجرهما، أو نهرهما، وإن كان بكلمة "أفّ" الدالة على الضَّجر والتبرّم.

٣- مجالستهما المستمرة، ومسامرتهما بالحديث الحلو، والنكتة اللطيفة، وإدخال السُّرور على قلبيهما، وإخبارهما بالأحداث السّارة في البلد والعالم.

٣- خفض جناح الذّل لهما رحمةً بهما، وتعطّفاً عليهما.

٤- التحدّث عن فضلهما وتضحياتهما وشكرهما على ذلك.

٥- الإنفاق عليهما، وإكرامهما بالهدايا، وإكرام ضيوفهما وأصدقائهما.

٦- الدُّعاء لهما بأن يظلّهما الله برحمته التي وسعت كُلَّ شيء، والإكثار من قول:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٤، ص ٢٧٥٥.

(٢) انظر: حقوق دعت لها الفطرة، ص ١٢- ١٥. وانظر: إسلامنا، السيد سابق، ص ٢٤٢- ٢٤٨. وانظر: شخصية المسلم، محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٥، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ص ٥٥- ٦٨.

"ربِّ ارحَمْهُما كَما ربَّياني صَغيراً".

٧- برّهما بعد وفاتهما بالدعاء لهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة رحمهما، وإكرام صديقهما، والتصدّق عنهما، وإبراء ذمتهما من الدَّين وحقوق الناس، وقضاء ما عليهما من صيام وحجّ، والحفاظ على سمعتهما، وعدم التسبّب في شتمِهما؛ ليظلّ ذكرُهما طيّباً بين الأحياء[1]:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، هل بقيَ من برّ أبوي شيء أبرّهما بعد وفاتهما؟ قال: نعم، الصّلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهم من بعدهما، وصلة الرّحم التي لا تُوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما"[2].

والويل لِمَنْ يعقّ والديه، فإنَّ الله تعالى يعجّل عقوبة العاقّ في الدنيا قبل الآخرة:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: "كلُّ الذنوب يُؤخّر الله ما يشاء منها إلا عقوق الوالدين، فإنَّ الله يُعجّل لصاحبه في الحياة الدنيا قبل الممات"[3].

فحذارِ حين تُقْبل الدنيا عليك، وتُدَرُّ عليك أخلافُ الرزق، وتمتلئ خزائنُك بالمال حذارِ أن تشغلك الزوجة الحسناء، والفراخ الزّغب، والمناصب الراقية، فتنصرف عن العناية بوالديك، وتمسك يدك عنهما، وتنسى ما أنفقا في سبيلك من مال وجهد وعَرَق!

---

(١) إذا مات ابن آدم، د. خالد عطية السعودي، دار عمار، عمان، ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م، ص ٣٣.

(٢) رواه أبو داود والبيهقي.

(٣) رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

حذارِ أن تنسى أو تتناسى؛ لأنّك سوف تكون بمنْزلتهما، وتكـون أباً كما كانـا أبويـن، وسوف تبلغ الكِبَرَ عند أولادك – إنْ قُدِّر لك البقـاء- كمـا بلغـاه عنـدك، وسوف تحتاج إلى برّ أولادك كما احتاجا إلى برّك، فإن كنتَ بررتَ والـديك فأبشـرْ بالأجر الجزيل والمجازاة بالمثل، فَمَنْ برّ والديه برّه أولادُه، ومَنْ عقّهمـا عقّـه أولادُه، والجزاءُ من جنس العمل، وكما تَدين تُدان.

والآن أضع بين يديك هذه القصّة المعبّرة المؤثّرة عن ولدٍ كان بارّاً بأمّه، وكانت أمّه امراةً صالحةً كثيرةَ التصدّق، وقد تعرّضَ الولدُ لحادثة خطيرة، فماذا جرى له؟

كان لامرأة ابنٌ غاب عنها غَيْبَةً طويلة، فجلستْ تأكـل يومـاً، فقطعـتْ لقمـة، وأهوتْ بها إلى فمها، فإذا سائلٌ واقفٌ بالباب، فأرجعَـت اللقمـة، وتصـدَّقتْ بهـا وبالرَّغيف الذي قطعَت اللقمة منه، وبقيتْ جائعة.

وكانت شديدةَ الخوف على ابنها، كثيرةَ الدُّعاء له، فما مضتْ إلا ليـالٍ يسـيرة حتى قدمَ ابنُها، فأخبر بشدائد عظيمة مرَّتْ به، وقال يا أمّاه: أعظمُ شيء مـرَّ علـى رأسي، أني كنتُ في غابة، وقد تأخّرتُ عن القافلة، فإذا أسدٌ قد خرجَ وقبضَ علـيَّ من حمار كنتُ فوقه، فغارَ الحمار، فأنشبَ الأسـدُ مخالبَـهُ في ثـوبي، فـذهبَ عقلـي، وجرّني فأدخلني الغابة.

فما هو إلا أنْ بركَ عليَّ ليفترسني حتى رأيتُ رجلاً عظيم الخَلْق، أبيض الوجه والثياب، ينقضّ على قَفا الأسد، ويرفعه حتى خبط به الأرض، ثمّ قال له : قُـمْ يـا كلب، لقمة بلقمة، فقام الأسدُ مهرولاً، وثابَ إلـيّ عقلـي، وطلبـتُ الرَّجـل، فلـم أجده.

ﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣﭢﭣ

وجلستُ ساعاتٍ إلى أن عادتْ إليَّ قُوّتي، ثم نظرتُ إلى نفسي، فلم أجد بها بأساً، فمشيتُ حتى أدركتُ القافلة، وأخبرتُهم فعجبوا من خلاصي، ولم أدرِ ما معنى لقمة بلقمة.

فنظرَتْ أمُّ هذا الابن إلى الوقت، وحَسَبتْهُ فإذا هو الوقت الذي أخرجَت اللقمةَ من فمها، وتصدَّقتْ بها، فكأنَّ اللقمة التي تصدّقتْ بها قد سلَّمَتْهُ من أن يكون لقمةً للأسد![1].

---

(١) صور من السلوك الاجتماعي في الإسلام، إبراهيم العلي، دار النفائس، عَمّان - الأردن، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، ص ٧٦-٧٨.

(٩)

ستحيا عظامُك وهي رَميم

إنَّ ربّك المحيي المميت الذي خلقَك أوّل مرة، وجعلك شيئاً ذا وزن وقيمة، ولم يعجزْ عن ابتداء خَلْقِك، قادرٌ على أنْ يبعثَك بعد موتك، ويحيي عظامَك، ولو تحوّلتْ إلى ذرات متناهية الصِّغر، ولو كانتْ في جوف البحر، أو في أعلى شاهق، أو كانتْ رميماً بالياً كالرّماد، أو حُرقتْ وتطايرتْ في الفضاء، قادرٌ على أن يحييَ عظامك بعد فنائها وتشتّتها، ولسوف تحشرُ مع الناس والجنّ والشياطين والوحوش:

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٦-٦٩].

فلتنظرْ نظرَ تفكّر واعتبار في أمر إحياء عظامك وبعثك بعد فنائك، ولتتفكّر في قدرة الله الذي خلقك من نطفة حقيرة، ولا تكنْ كأخيك الإنسان الذي يخاصم، ويجادل، ويتابع الفلاسفة الملحدين في إنكار البعث، ويبارز ربّه الحليم بعظائم الذنوب:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس:٧٧]

ولا يكتفي الخصيمُ المجادل بذلك، بل يضربُ المثل، ويدّعي العقلانية، ويتساءل: مَنْ يحيي العظام، وهي بالية أشدّ البلى، متفتتة متلاشية؟ فيأتي الأمر

ﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻﭺﭻ

الإلهيّ لنبيّه محمّد ﷺ قُلْ للمنكر الجاحد: يخلقها ويحييها الذي أوجدها مـن العـدَم، والذي أبدعَ خلقها أول مرّة من غير شيء، والذي يعلم كيف يخلقُ ويبدع، والـذي جعل من الشجر الأخضر ناراً تحـرق، والـذي خلـق السـمواتِ والأرض مـع كـبر جِرْمِهما، وعِظَم شأنهما، وأمرُه بين الكاف والنـون، فمتـى أراد شـيئاً وُجـد بـدون تعبٍ ولا جهد، فهو الذي بيده الملك الواسع، والقدرة التامة، وإليـه وحـدَهُ مرجـعُ الخلائق للحساب والجزاء:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٨٣]

فإذا أذنَ الله الحـيّ القيّـوم قامـَت السّـاعة، وتحرّكـت الأرض تحريكـاً عنيفـاً، واضطربت اضطراباً شـديداً، واهتـزّت اهتـزازاً يقطـعُ القلـوب، ويُفـزعُ العقـول، وأخرجتْ ما في بطنها من موتى وكنوز، وساعتئذ تتعجّبُ أنـت مدهوشـاً مـأخوذاً من تلك الحالة الفظيعة التي تتعـرّضُ لهـا الأرض، ومـا الأمـر إلا السَّـاعة وموعـد عظامك مع البعث والنشور:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٣].

ولسوف يجمعُ ربُّك المبدئُ المعيدُ عظامَك بعد أنْ حسبتَ أنَّـه لـن يقـدرَ علـى جمعها بعد تفرّقها، بل إنَّ ربّك قادرٌ على إعـادة أطـراف أصـابعك، ومـا فيهـا مـن خطوط وتجاويف دقيقة جدّاً لا تماثلها خطوط أخرى في أصابع شـخص آخـر مـن أول الخليقة إلى آخرها، حتـى إنّـك لَتُعْـرَف ببصـمة إصـبعك، فـلا تكـن كأخيـك الإنسان الذي يريد أن يستمرّ على الفجور، وينطلق كالحيوان دون وازع مـن خُلـق أو دين، لا همَّ له إلا نيلُ شهواته، والاسـتكثار مـن لذاتـه، وهـو يكـذّب بالبعـث ويسأل على سبيل الاستهزاء سؤالَ المتعنّت المستبعد: متى يكون هذا اليوم؟

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١-٦].

وسيكون هذا اليوم لا محالة، يوم يتحيّر البصر، وينبهر من شدّة الهول والخطر، يوم يظلم القمر، وتتحطّم الشمس، ثمّ يجمعان، وهناك يقول الجاحد: أين المهرب؟ وأين الفرار؟ ولا مهرب، ولا فرار من الله إلا إليه، فإليه مصير الخلائق كلّها:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ٧-١٢].

في ذلك اليوم العصيب تُخْبَرُ بجميع أعمالك صغيرها وكبيرِها، عظيمِها وحقيرِها، وما قدّمتَ منها في حياتك، وما أخّرتَ بعد مماتك من سُنَّة حسـنة أو سـيّئة، أو سمعـة طيبة أو قبيحة، ولا شاهد غيرك على نفسك، يشهد عليك سمعُك وبصـرُك ورجـلاك وجوارحُك، ولا ينفعُك الاعتذار والجدال، فقد شهدتَ على نفسك:

﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٣-١٥].

وقد كنتَ تحسبُ أنْ تُترك سُدى وهملاً من غير بعث أو جزاء، ومن غير تكليف أو أمانة، وقد خلقك ربُّك البارئُ المصوّر من ماء مهين يُصبّ في الأرحام، ثمّ أصبحتَ قطعةً من دم غليظ متجمّد يشبه العَلَقة، فخلقَك ربّك القادرُ بقدرته في أجمل صورة، وأحسن تقويم، وجعل منك صنفين من الناس ذكراً وأنثى، أليس ربُّك الجامعُ قادراً على إعادتك وإعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنّه على كلّ شيء قدير، سبحانك اللهم بلى، أنت الخلاق العليم:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

فإذا بعثك ربُّك الباعثُ، واستويتَ آدميّاً كما خلقك، خرجتَ من قبرك حافياً عارياً، فإذا أنت في أرض المحشر، قد أتيتَ ربَّك الشّهيدَ فرداً، وبدأت تتذكرّ أعمالك، وما كسبتَ من خير، وما ارتكبتَ من شرّ:

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات:٣٥]

ثمَّ أخذ عليك الندمُ كلَّ مأخذ، وصرتَ تتمنى لو أنّك أقلعتَ عن العصيان، وتُبتَ توبةً نصوحاً، وقدّمتَ عملاً صالحاً ينفعُك في آخرتِك، ولكنْ هيهات أن تنفعَ الذكرى بعد فوات أوانها:

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]

فأعْلِن الآنَ التوبة النصوح، وأنت حيّ تُرزق في هذه الحياة الدنيا، وقد جعل لك ربُّك الهادي أمثلةً وشواهد؛ لتعتبر بها على البعث، ومن ذلك القمر الذي يبتدئ صغيراً ثمّ يتكامل بدراً، ثمّ يتناقص بانمحاق، وقد يطرأ عليه ما يفسدُه بالخسوف، فكذلك أنت أوّلُك نطفة، ثمّ تترقى من الضعف إلى اكتمال القوة، ثمّ تتناقص بالضعف، وربما هجم عليك الموتُ قبلَ ذلك هجومَ الخسوف على القمر:

والمرءُ مثلُ هلالٍ عندَ طلعتِه	يبدو ضئيلاً لطيفاً ثمَّ يتّسقُ
يزدادُ حتّى إذا ما تمَّ أعقبَهُ	كرُّ الجديدين نقصاً ثمَّ ينمحقُ! [١]

وإنّه لمن الغَلَط الشنيع أن يُفْهَمَ الموت على أنّه عدمٌ محض، وفناء مطلق، وأن تُفْهمَ الحياة على أنّها عَبٌّ من الشهوات، والتهام ما يمكن التهامه، فهذه أكذب فِرْية يشيعها المبطلون في أرجاء العالم، وقد أدَّتْ إلى انتحار أعداد كبيرة من الناس الظّانّين أنَّ الموت سيريحهم، وأنّه ضياع وانقطاع وفراغ من كلّ شعور، فكيف إذا علموا بالحقيقة المرّة، ووجدوا أنفسهم التي يريدون إزهاقها ما تزال باقية لم يتغيّر منها إلا الإهاب الذي احتواها حيناً، ثمَّ عَريتْ منه دون أن يَنْقُصَ وعيها، أو يَقِلَّ حِسُّها؟[٢]

وأيّ إنسان يبني حياته على زعم أنَّ الميت جثّة تحتها تراب، وفوقها تراب، ثمّ

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ٣٨٣.

(٢) جدد حياتك، محمد الغزالي، ص ٣٣- ٣٤.

يحتويه ظلام العدم والنسيان، فإنّما يبنيها على خُرافة، فالحقّ أنَّ الموت مرحلةٌ تتلوها حياةٌ أضخم من هذه الحياة، وأعمقُ إحساساً، وأرحبُ آفاقاً، وهي حياة تُعدُّ هذه الدنيا لهواً وعبثاً إلى جانبها. [1]

وجسدُك هذا الحيّ يسبحُ اللهَ بخلاياها وأنسجته وأعصابه، ثـمَّ إذا توفّاك الله تعالى، وتحلّل جسدُك فإنَّ ذراته تظلّ تسبح الله تعالى وتقدّسُه إلى قيام السّاعة حين تُدعى تلك الذّرات إلى التجميع في ذلك الجسد من جديد لحظةَ البعث والنشور[2].

ويعجب العلماءُ للسرّ الخفي الذي يمكّنُ تلك الذّرات المتحلّلة عن الجسد الميت من إعادة ترتيب أوضاعها داخل كلّ جُزئ من جزيئات الحمض الأمينيّ بمعدلات ثابتة لا تتوقّف ولا تتخلّف، كما يُوحي بأنَّ المادة التي يصفها الإنسان بوصف "الصّماء" فيها من الأسرار ما لم يستطع الإنسان التوصّل إليه في عصر التقدّم التقني والعلمي المذهل الذي نعيشه[3].

والموتُ سيطرقُ بابَك مهما عشتَ، وتنعّمتَ، وتمتّعتَ بالقوة والجاه والغِنى، سيطرقُ بابَك كما طرقَ بابَ هذا الإنسان الذي يُحدِّثُ عنه أحدُ الفضلاء:

كم من صاحبٍ لي - لو شئتُ سمّيتُه - أطلقَ نفسَهُ في شهواتها، ووقعَ أسير اللذة، وغفلَ عن الموت، فلما هداني الله عزّ وجلّ لطاعته فزعتُ إلى صاحبي أنصحُهُ وأرغّبُه وأرهّبُه، فما كان منه إلا أن اعتذرَ بشبابه، وغرّه طولُ الأمل.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣- ٣٤.

(٢) صور من تسبيح الكائنات لله، د. زغلول النجار، نهضة مصر، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٣م، ص ١٧.

(٣) المصدر السابق، د. زغلول النجار، ص ١٨.

فوالله لقد فاجأه الموت، فأصبح اليوم في التراب دَفيناً، وصار بما قدّمَ رهيناً، ذهبتْ عنه اللذات، وفارقته الغانيات، وبقيتْ في عنقه التَّبعات، وأقبل على الله الجبّار بأعمال الفسقة الفُجّار. فاتّقِ الله ولا يكن مثلُك كمثله، فما وددتَ عملَهُ في تلك الساعة، فعجّلْ بعمله من اليوم، وما وددتَ اجتنابَهُ فابدأ به من الآن:

فلو أنّا إذا متنا تُركنا ... لكان الموتُ راحةَ كلِّ حيّ
ولكنّا إذا مِتنا بُعثنا ... ونسألُ بعدهُ عن كلِّ شيء![1]

يروى أنَّ عمر بن الخطّاب ﷺ قال وهو بمكة: لقد كنتُ أرعى إبلَ الخطّاب بهذا الوادي في مُدرَّعة صوف، وكان فظّاً يتعبني إذا عملتُ، ويضربني إذا قصّرت، وقد أمسيتُ (خليفة) ليس بيني وبين الله أحد، ثمَّ تمثّل:

لا شيءَ ممّا ترى تبقى بشاشتُهُ ... يبقى الإلهُ ويُودي المالُ والولدُ
لم تُغنِ عن هُرْمُزٍ يوماً خزائنُهُ ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمانَ إذ تسري الرّياحُ به ... والإنسُ والجنُّ فيما كُلِّفوا عُبُدُ
أين الملوكُ التي كانتْ نوافلُها ... من كلّ أوبٍ إليها راكبٌ يفدُ
حوضٌ هنالك موروٌد بلا كذبٍ ... لا بدَّ من وِرْدنا يوماً كما وردُوا![2]

ويروى أنَّ أبا حامد الغزالي لمّا أحسّ دنوّ أجله طلب من بعض أصحابه ثوباً جديداً ليلقى به مَلَك الموت، فجيء بالثوب، فطلعَ به إلى بيته، فأبطأ على أصحابه،

---

(١) الموت عظاته وأحكامه، علي حسن عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، عمان، ط٥، ١٤١٠هـ، ص ١٦- ١٧.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيّان التوحيدي، القسم الثاني، ص ٥١٤-٥١٥.

فلمّا ذهبوا ليستطلعوا نبأه وجدوه ميتاً، وعند رأسه ورقة عليها أبيات منها:

قـــلْ لإخــــوانٍ رأونــــي ميِّتــــاً ... فرثــــوني وبكــــوا لــــي حَزَنــــا

أحمـــــدُ الله الـــــذي خلّصـــــني ... وبنـــــى لـــــي في المعـــــالي سَـــكَنا

كنــتُ قبـــلَ اليـــوم مَيْتـاً بيــنكم ... فحييـــــتُ وخلعـــــتُ الكَفنـــــا

لا تظنّـــــوا المـــــوتَ موتـــــاً إنّـــه ... كحيـــاةٍ وهـــــو غايـــاتُ المنـــى

لا تَــرُعْكم هجمــةُ المــوتِ فمــا ... هــيَ إلا نُقْلــةٌ مـــن هــا هنــا![1]

(١) جدد حياتك، محمد الغزالي، ص ٣٤- ٣٥.

(١٠)

فانظرْ ماذا ترى؟

لا يفتأ ربُّك المنعمُ الوهّاب يذكّرك بنعمه وآلائه، ويدعوك إلى إنعام نظرك، وإعمال عقلك؛ لتعرفَهُ حقَّ المعرفة، وتبجّلَهُ أحسنَ التبجيل، فهو يلفتُ انتباهك، ويحرّكُ قلبك، ويثيرُ حسّك، ويوجِّهُ عقلك إلى خَلْقك هذا القويم البديع، من أيّ شيء خلقَكَ ربُّك ﷻ؟

هل تفكّرْتَ في خَلْقِك؟

ثمّ يأتيك الجواب الدامغ القاطع من الخالق البارئ المصوّر أنّك خُلِقتَ من منيّ متدفّق، ينصبّ بقوّة وشدّة، يتدفّق من صُلْب أبيك، وهو عظام ظهره الفقارية، ومن ترائب أمّك، وهي عظام صدرها العلويّة، وقد التقيا في قَرار مَكين، فتكوّنتَ أنت، ونَمَتْ لك أجهزةٌ عظمية وعضلية وعصبية وهضمية وبولية وتنفسيّة ودورانية ولمفاوية، وغدا في جسمِك أعظمُ مصنع في العالم.

فهل من مُدَّكِر؟ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

ثمّ إنّ ربّك المقتدر قادرٌ على إرجاعك إلى الحياة بعد موتك، يومَ تُمْتَحن القلوب وتُخْتبر، ويُمَيّز ما طاب منه وما خبث، وفي ذلك الوقت لا قوةَ لك تدافعُ عنك، ولا ناصرَ ينصرُك إلا أن يتغمّدَك الله برحمتِه:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ٨-١٠].

وأبحاث العلم الحديث تؤكّد أنَّ أصلَك ومَعْدِنك الأساس من طينة الأرض، وأنك لو أُعدتَ إلى عناصرك الأوّلية لكنتَ أشبه بمنجم صغير يشترك في تركيبه اثنان وعشرون عنصراً.

وهذه بعض الحقائق الموجزة التي وقف عليها العلمُ الحديث في خَلْق الإنسان، وما فيه من الآيات البيّنات؛ لتزدادَ تبصّرة ومعرفة بنفسك[1]:

-الدِّماغ: وُجد فيه ثلاثة عشر مليار خليّة عصبيّة، ومائة ألف مليار خلية دبقيّة استنادية تشكّل سدّاً منيعاً لحراسة الخلايا العصبيّة من التأثر بأيّة مادّة، ويحتاج الدّماغ يومياً إلى كمية من الدّم لا تقل عن ألف لتر!

-العين: وُجد في العين الواحدة نحو مائة وأربعين مليون مُسْتقبل حسّاس للضوء. ويخرج من العين نصف مليون ليف عصبيّ ينقلُ الصورة بشكل ملوّن، ويتم تنظيف العين عن طريق إفراز الغدد الدمعيّة سوائل مالحة تُدرُّ حسب الحاجة إليها!

-الأذن: هي أهم من العين لوظائفها الكثيرة التي يُعْتمد عليها في توجيه النطق، والبصر، والحركة، والتوازن، والانتباه من النوم، والتّربية، والتعليم. وقد

---

(١) انظر : د. خالص جلبي، الطب محراب الإيمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥، ج١، ص٥٩.

- د. عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقوز، مع الطب في القرآن الكريم، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ١٩٨٢ م، ص ٣٩-٤٣.

- د. السيد الجميلي، الإعجاز الطبي في القرآن، مكتبة التحرير، بغداد، ط٣، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص ٤٣-٦٩.

ورد السمع مقدّماً على البصر في مواضع كثيرةٍ في القرآن الكريم[1].

ويوجد في الأذن نحو ثلاثين ألف خلية سمعية، وتفرز الغدد السمعّية سائلاً لزجاً مرّاً لحماية الأذن وتنظيفها من الغبار!

-الأنف: يستطيع أن يميّز نحو أربعة آلاف رائحة مختلفة منها الروائح الكريهة ومنها الطّيبة!

-اللّسان: يوجد فيه تسعة آلاف خليّة ذوقّية لتمييز الطعم الحلو والحامض والمرّ والمالح!

-المعدة: فيها خمسة وثلاثون مليون غدّة معقّدة التركيب لأجل الإفراز!

-القلب: عضلة تزن نحو ثلاثمائة وخمسة وعشرين غراماً، وتعمل على ضخ الدم عبر مائة ألف كيلومتر من الأوعية الدموية يومياً!

- الهدم والبناء: يستهلك الجسم من خلاياه نحو مائة وخمسة وعشرين مليون خليّة في الثانية الواحدة، ويتشكل العدد نفسه في الثانية الواحدة نفسها!

- سطح الجلد: وجد تحت سطح الجلد خمسة إلى خمسة عشر مليون مكيّف لحرارة البدن!

- التنفّس: يتنفّس الإنسان كلَّ يوم نحو خمسة وعشرين ألف مرّة يسحب فيها مائة وثمانين متراً مكعباً من الهواء، يتسرّب منها نحو ستة أمتار ونصف من الأكسجين للدم!

هل تفكّرْتَ في طعامك؟

وربُّك الرّزّاق هو الذي هيّأ لك أسبابَ العيش، وخلقَ لك الطعامَ الذي به قوام حياتك، والذي هو أساس بناء جسمك، يمدّه بالطاقة الحيوية، ويجدّد أنسجته

---

(١) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (سمع)، ٣٥٨.

وخلاياه، ويكسبُهُ المناعة ضدّ الإصابة بالأمراض، ويمنحه التوازن العقليّ والنفسيّ، ويُبقي على نضارته ونشاطه، ويُشعر بالرّضا والنشوة عند تناول الغذاء الشّهي.

فهل لك يدٌ في إيجاد هذا الطعام؟ هل لك يدٌ في تدبيره وإخراجه وإبداعه؟ هل لك يدٌ في تنوّعه، وتلوينه، وطعمه، ورائحته، وحجمه؟ أتعرف قصَّةَ طعامك كيف ابتدأت؟

لقد قصّ عليك ربُّك الرّزاق المغني قصة طعامك، وفصَّلَ لك مراحلها؛ إذ أنزل الماء من السّحاب، وصبّه على الأرض التي شقّها بخروج النبات منها شقّاً بديعاً، فأخرج بذلك الماء أنواعاً منوّعة من الحبوب والنباتات والفاكهة التي انبثقت من التربة، ونَمَتْ على وجهها، وامتدتْ في الهواء فوقها، أخرجَ القمح والشعير، وسائرَ البقول، والعنب الشّهي، والزيتون دائم الخضرة، والنخيل وما يُنْتِج من الرّطب والتمر، وبساتين كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان.

كما أخرج العشب الذي ترعاه البهائم، وكلُّ ذلك ينبتُ في تربة واحدة، ويُسقى بماء واحد، ولكنّه يخرجُ مختلفَ الألوان والطعوم والروائح والأحجام، وكلُّ ذلك من أجل أنْ يكون منفعةً ومعاشاً لك ولأنعامِك:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

هل تفكّرْتَ في نعمة البيان والعلم؟

وربّك الرَّحمن هو الذي علّم القرآن ذلك الكتاب العزيز، أعظم الوحي، وسنام الكتب المُنْزَلة، وأشرفها مَنْزلة، والنعمة العظمى التي تتجلّى فيها رحمةُ الرحمن بعبده

الإنسان.

وهو الذي خلقك، وصوّرك، وأخرجك إنساناً سميعاً بصيراً، وعلّمَك البيان، وألهمَك النطق، ومنحَك قدرةً فائقةً على التعبير عن أفكارك ومشاعرك باللفظ والإشارة والإيماءة والكتابة حتى تفوّقتَ على الكائنات في جَلاءِ بيانك، وفصاحةِ لسانك، وبراعةِ قلمك، على أنّ عباقرة البشر لا يزالون عاجزين عن فهم معجزة البيان التي تتمتّعُ بها دون أن تلقيَ لها بالاً:

﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]

وهذه المعجزة الباهرة إمدادٌ لك من ربّك الواحد الصّمد الذي خلقك من خلية صغيرة ضئيلة، ثمّ أخرجك من بطن أمّك لا تعلم شيئاً، وعلّمك المعارف والعلوم والفنون، وعلّمك الخطّ والكتابة بالقلم، وجعل هذا القلم سبباً في حفظ تراثك وآدابك وحضارتك وتجاربك، حتى دوّنتَ ملايين الكتب، وأنشأتَ آلاف المكتبات، وأقمتَ آلاف المدارس والمعاهد والجامعات، وبنيتَ المختبرات والمعامل والمراصد، واطّلعتَ على أسرار كثيرة في هذا الكون الرَّحب، فاخترعتَ وابتكرت، فإذا دنياك تنعمُ بالكهرباء، وتعجُّ بوسائل النقل المتقدمة، وتمتلئ بأجهزة الاتصال المتطوّرة، وإذا أنت أنعمُ إنسان وُجدَ على وجه الأرض:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥].

واللغةُ التي تتحدّثُ بها فعل إنسانيّ يتطلّبُ نشاطاً إرادياً من العقل، إذ تدفعُ

عدداً من أعضاء الجسم إلى العمل، وهي ظاهرة اجتماعية، ووسيلة اتصال، وهي حقيقة تاريخية ثابتة من عصور متباعدة في القدم[(١)].

واللغةُ تجعلك كائناً ثقافياً متكاملاً، وكلماتُها تجعلك حُرّاً؛ فالشخص الذي لا يستطيع التعبير عن نفسه يصبح كالعبد؛ لأنَّ الحديثَ هو تعبيرٌ عن الحرية، والكلمةُ هي الحرية نفسها[(٢)].

وقد استطاعت الشعوبُ أن تتحرَّر بالثقافة، وتكتسبَ بها مرونة كبرى في إشباع حاجاتها البيولوجية، فالمخترعات الحديثة من ملابس ووقود ومساكن جعلتها تعيشُ في ثلوج القطب الشمالي أشدّ الأماكن برودة على وجه الأرض[(٣)].

وقد أودع الله ذو العرش المجيد المواهبَ والقدراتِ في الشعوب والقبائل والأجناس، فلا مزية لجنس على آخر، ومن الخطأ أن يقال إنَّ البيض هم أشدّ ذكاء، وأكثر تفوقاً في التصميم، أو أنّ الزنوج أكثر الناس بدائية بأنوفهم المنبسطة، ذلك لأنَّ ازدراء الأجناس غير البيضاء هو أشدّ إيلاماً من الاستغلال الاقتصاديّ، والعالم اليوم يشهد نهضةَ جماعةٍ آسيوية واحدة صارت قوة عالمية، وسترى الأجناس البيضاء أنها كانت مخطئة في اعتقادها أنّها الأذكى والأحسن[(٤)].

(١) الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، نخبة من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٥٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٤) دراسة الإنسان، رالف لنتون، ترجمة: عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٦٤م. ص ٦٠-٨٥.

أفلا يستحقّ ما أنت فيه من نعمة البيان، والكتابة بالقلم، وتعلّم العلوم، والاختراعات الحديثة، أفلا يستحقّ منك التفكّر والتأمل، ولو ساعة واحدة في السنة، أو في العمر؟

ما غرّك بربّك الكريم؟

أرأيتَ كيف دعاك ربّك إلى التفكّر في خَلْقك وطعامِك ونفسِك وكلامِك؟ من أجل ماذا؟

من أجل أن تعرفَ أنّه الواحد الأحد، وترى فيوضَ نعمه وآلائه، وتستعصمَ به دون سواه، فلا يغرّك شيء به ﷻ، ولا يخدعك خادعٌ من أمل عريض، أو شيطان رجيم، أو مال برّاق، أو نبات بهيج، أو وجه وضّاء.

فما الذي يخدعك بربّك الحليم الكريم حتى تبارزَهُ بالمعاصي، وتتمادى في التقصير في طاعته، وتسيء الأدب في حقّه، وتتجرّأ على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك، وعطفه عليك؟

أو ليس هو الذي خلقك وأوجدك من العَدَم، ونفخَ فيك من روحه، ومنحك الحياة؟

أو ليس هو الذي جعلك سويَّ الخلقة، معتدل التصميم، سليم الأعضاء والجوارح؟

أو ليس هو الذي جعلك معتدل القامة منتصباً في أحسن هيئة، وأقوم شكل؟

أو ليس هو الذي ركّبك في أجمل وأحسن وأكمل صورة شاءها واختارها لك؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]

إنّه خطاب مُباشرٌ لك من ربّك الكـريم، ويجـب أنْ يَهُـزَّ كُـلَّ ذرّة في كيانـك، فيوقظ إنسانيتك، ويبلغ من قلبـك شـغافَه وأعماقَـه، فربّـك الكـريم يعاتبُـك هـذا العتاب الجليل، ويذكّرك بالجميل، يذكّرك بصورتك الجميلـة السَّـوية المعتدلـة الـتي خلقَك عليها، تلك التي تستحقّ منـك التـدبّر الطويـل، والشـكر العميـق، والأدب الجمّ، والحبّ لربّك الكريم الذي أكرمك بهذه الخلقـة تفضّـلاً منـه ورعايـة ومنّـة، يعاتبُك هذا العتاب المـذيب لقلبـك، المخجـل لفعلـك؛ لتتـأدّب في جنابـه، وتقـدّر جلاله، قبل أن تقفَ أمامه يومَ القيامة مُقصّراً مُذنباً خائباً خائفاً[1].

فتفكّرْ في حياتك إذ ذكّـرك ربّـك بـذنوبك شـفاهاً، إذ يقـول: يـا عبـدي أمَـا استحييتَ مني فبارزتني بالقبح، واستحييتَ من خلقي، فأظهرتَ لهم الجميل، أكنتُ أهـونَ عليـك مـن سـائر عبـادي؟ أسـتخففتَ بنظـري إليـك، فلـم تكـترث بـه، واستعظمتَ نظر غيري؟

ألم أنعم عليك؟ فما غرّك بي؟[2]

وفي حاضرك اليومَ تراكمتْ نظرات جاهلية، واتجاهات فلسفية وأدبية تبغـي أن تذهبَ بك كلَّ مذهب، وتمزّقَ كيانك، وتخرجَك عارياً من إنسانيتك كما أخـرج الشَّيْطانُ أبويك من الجنّة يَنْزِع عنهما لباسَهما، وتبغي أنْ تغرّك بربّك الكريم.

ومن هذه النظرات التي تتربّص بك: الفلسفة الهندوكية التي تعـتني بـالرُّوح، وتهمل الجسد، وتَعُدّ الكامل مـن النـاس هـو الـذي يتأمّـل ولا يعمـل. والفلسـفة اليونانية التي تصف النفس بالإنارة والجسم بالظلمة، وهي آراء أفلاطون وأرسطو.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦، ص ٣٨٤٨- ٣٨٥٠.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، تحقيق: حامد أحمد الطـاهر، دار الفجـر للـتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، ص ٢٥٣.

ونظرية داروين التي تَنْزع إلى حيوانية الإنسان، وتُنكر الألوهية، وتُنكر الروح. والطبيعية، وهي مذهب أدبي ينظر إلى الإنسان بوصفه حيواناً تسيّره غرائزه وحاجاته العضوية.

ورأس هذا المذهب "إميل زولا" الذي يرى أنَّ الإنسان كائن بلا أمل يتحوّل في الظلام إلى حيوان محض. والفرويدية، وهي فلسفة فرويد التي تَعُدّ الجنس أساسَ الحياة ومنبع المشاعر. والماركسية التي تنادي بأنَّ الحياة مادة، وأنَّ أسلوب الإنتاج هو الذي يكيّف ألوان الحياة الاجتماعية والسياسية. والوجودية، وهي تيار يعكس على الفرد العَدَمية والعبث والقلق والشعور بالغربة[1].

المشروع الفكريّ الكبير

فماذا تفعل حتى لا يغرّك شيء بربّك الكريم؟ وماذا تفعل لكي تنجوَ من عذابه الأليم، وتحظى بما أعدّ لعباده من النعيم؟ وماذا تفعل لتسلمَ من عتاب ربّك ووعيده؟

لا بدَّ من أن توثّقَ صلتك بهذه المُنْجيات، وتجعلها مشروعك الفكريّ الكبير:

أولاً- إيقاظ العقل:

أراد القرآن الكريم للعقل أنْ ينهضَ من عقاله، ويفيق من سباته، فدعاه إلى النظر والتأمل والتفكّر، وعدَّ ذلك من جوهر العبادة؛ لأنَّ تعطيل العقل عن وظيفته يوقفُ نشاط الحياة، ويتسبّب في الجمود والتخلّف، ويهبط بالإنسان إلى مستوى أقلّ من مستوى الحيوان، وهو الذي حال بين الأقدمين وبين النفوذ إلى الحقائق في الآفاق وفي الأنفس، ولولا يقظةُ العقل الذّكي الملهم، والتفكير العميق

(١) الإنسان في الأدب الإسلاميّ، محمد عادل الهاشمي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، د. ط، د.ت، ص٢١٤.

المشرق ما اهتدَت الإنسانية إلى قوانين الحياة، وسُنن الله في الكون، واستخراج كنوز الأرض، والتغلّب على جَدْبها، وزيادة إنتاجها، وتقريب المسافات البعيدة، وتخفيف الأدواء الفتّاكة، والبلوغ بالحياة إلى مستوى رفيع، ما كان أحدٌ من أجدادنا يحلم به[1].

لَولا العُقولُ لَكانَ أَدنى ضَيغَمٍ أدنى إِلى شَرَفٍ مِنَ الإِنسانِ!

فاحرصْ إذن على أن تُعْمِلَ عقلَك في أقطار نفسك التي بين جنبيك، وفي أروقة الكون الفسيح، وفي بحار النعم التي تعومُ فيها، وفي طعامك الذي تلتذّ به، وفي لسانك ولغتك وكلامك، وفي كلّ ما دعاك ربُّك إلى النظر فيه:

وفي كُلّ شيء له آيةٌ تدلُّ على أنّه الواحدُ!

ولا تحجبْ عقلك بالتقليد، واتّباع رأي فلان وفلان، والتعصّب لحزب كذا وكذا، فتصير إمّعة إن أحسنَ الناسُ أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولا تُسْهم في خمول هذه الأمة، فتكون من المتثائبين المتثاقلين الذي لا خير في كثير من نجواهم وخُططهم ومشاريعهم.

ثانياً- إطلاق النفس من قَفص المادة:

أدّى طغيان المادة بالإنسانية المعاصرة إلى خروجها عن الفطرة، وتصادمها مع ناموس الكون، وعيشها في عذاب نكد، ومعاناتها من الشقاء والحيرة، وتمرّغها في وحل الشذوذ الجنسيّ، والقلق العصبي، والجريمة المنظّمة، وهروبها من واقعها

(١) إسلامنا، السيد سابق، ص ١٧- ٢٥.

بالمسكرات والمخدّرات، وذلك على الرّغم من الرَّخاء المادي، والإنتاج الوفير، والحياة الميسّرة، والفراغ الكبير[1].

وإذا تعلّق الإنسانُ بقشرة هذه الحضارة المادية، وأُعجب بها، وبُهرَ بإنجازاتها، وقلّد أهلها، فإنَّ المادة ستطغى على نفسه، فيتّبع هواه، ويشقى ويتمزّقَ، ويغرُّه بريق المال، ويركن إليه، فإذا هو أسير الدرهم والدينار، وإذ هو سجين في قفص المادة، أسيرٌ في تخوم ذاته، وإذا هو مع ناس غير الناس، وفي بلاد غير البلاد:

بلاد بها كنّا وكنّا نحبّها   إذ الناسُ ناسٌ والبلادُ بلادُ!

أي إذ الناس أحرار، والبلاد مُخْصبة.

ولقد كان محمّد ﷺ المثل الأعلى للخليقة في إطلاق النفس من أقفاصها، والسموّ بها، فقد عاش مع الله تعالى، وعاش مع المستويات الرفيعة التي حَلَّقَ عندها رسولُ الله، وعاش مع القيم العليا التي آثرها على مناعم الدنيا وجاهها وغرورها، فاكتستْ تصرفاته بطابع كلّه سموّ وجمال وجلال، فكان السموّ في حياته يزدهر ويترعرع كما تزدهر البذور وتنمو في مزرعة طيبة التربة، طيبة المناخ، ريّانة بالماء، فالسموّ عنده أناقة الكلمة، وأناقة النفس، وأناقة الجسم، وأناقة السُّلوك[2].

هذا هو محمّد رسول الله ﷺ، أمَا لك به أسوة حسنة؟ قل بأبي هو وأمّي، لي به أسوة:

إنَّ الرسولَ لنورٌ يستضاءُ به   مهنّدٌ من سيوف الله مسلول!

فلا بدَّ من إطلاق نفسك من قفص المادة بشحنها بالفضائل، وتحبيبها بالقيم السَّامية، وحملها على أداء زكاة المال، والإكثار من التصدّق، وصلة الرَّحم،

(١) هذا الدين، سيد قطب، ص ٢٦- ٢٧.

(٢) إنسانيات محمّد، خالد محمد خالد، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص ١١٧- ١١٨.

وتزهيدها في متاع الدنيا الزائل؛ لتكونَ رقيقة شفّافة:

أقبلْ على النفس فاستكمل فضـائلها　　　فأنت بـالنفس لا بالجسـم إنسـانُ!

وإذا أطلقتَ نفسَك فراقبها مراقبةَ المشوق المستهام، وقُدْها قيادةَ الطيّار الحاذق لطائرته الجامحة الهائجة في الفضاء، فإنّه إنْ غفل عنها، أو تشاغلَ بالمناظر تحته، هوَتْ به وبِمَنْ معه، وتحطّمتْ حطْمَ الزّجاج، وتكسّـرت النِّصـال علـى النِّصـال، فسـالتْ دماء، وتناثرتْ أشلاء!

ثالثاً- تنمية الإحساس بالنعمة:

يلفتُ القرآنُ أنظارنا بقوة إلى نفاسَةِ النعم التي تكتنفُنا، فما أغلى العافيـة الـتي تسري في أوصالنا، وما أثمنَ القُوى الـتي زوّدنـا الله بهـا، ومـا أشـهى الثمـار الـتي نقطُفُها من هذه النعم لو أحسنا استغلالها، فهذه الحياة الراقية الممتازة تكريمٌ خاصّ ينبغي أنْ نعتزّ بـه، وأن نبصـرَ حـقّ الله فيـه، وقـد منحنـا الحـواس لنتعـرّف مـا في الوجود، ونتذوّق بملكاتنا المادية والأدبية جمالَهُ وقواه، ليغمرنا هذا البهاء المفاض من كلّ ناحية، ولتهتزّ مشاعرنا شكراً للذي أحيانا وكرّمنا[1].

وما أكثرَ النعمَ التي بين أيدينا، وإنْ غفلنا عنها، ألا تعلم أنَّ هناك خلقـاً ابتلـوا بفقد هذه النعم، فمنهم من حبسَهُ الشَّلل في جلده، فما يستطيع حركة، ومـنهم مَـنْ يستجدي الهواء الواسع نفساً يحيي به صدرَهُ العليـل، فمـا يعطيـه الهـواءُ إلا زفـرة، وتخرجُ شاخبة بالدم، ومنهم مَنْ عاش منقوصَ الأطراف أو المشاعر، ومنهم يتلـوّى من أكل لقمة؛ لأنَّ أجهزته الهاضمة معطوبة.وإذا كنـتَ معـافى مـن هـذه الأسـقام

(١) جدد حياتك، محمد الغزالي، ص ١٣٧، ١٤٠.

كلّها مَنْ فلا تظنّ أنَّ ما عندك ثروة تافهة، أو أنك لا تُحاسب عليه، فإنَّ الله يكلّفك بقدر ما يعطيك.

وإنَّ رأسَ مالك الأصيل هو مواهبُك وقدراتُك، فلا تزدرِ ما عندك؟ أتراك تبيع عينيك في مقابل مليون دينار؟ كم من الثمن تظنّه يكفيك في مقابل ساقيك أو سمعك أو أولادك، أو أسرتك؟ أيسرّك أن يكون لك مائة مليون دينار، وأنت أعمى أصمّ أبكم؟[1]

رابعاً- إدارة الوقت:

إنَّ أثمنَ شيء في حياتك هو الوقت، فهو رأسُ مال العمر، ومضمارُ العمل، والشريانُ الحيويّ للنشاط والهمّة، فيجب استثماره إلى أبعد مدى، وعدم الفرح بذهابه، فذهابُه نقصٌ من الأجل:

إنّا لنفرحُ بالأيام نقطعُها وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ!

والناس في التعامل مع الوقت صنفان: أكثرهم يدفعون الزَّمان دفعاً عجيباً، يقطعون ليلَهم في لهو الحديث والسّمر فيما لا ينفع، ويقطعون نهارهم في النوم الطويل، والتَّجوال في الأسواق، والتنزّه على الشواطئ، فمثلُ هذا الصنف كمثل المتحدّثين في سفينة، وهي تجري بهم، وما عندهم خبر. وصنف نادر فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزَّاد والتأهب للرحيل، ويستكثرون من الأعمال الصالحة، فيزيد ربحهم؛ لأنّهم استشهدوا بالعلم، واستدلوا بالحكمة، فكأنْ قد حدا الحادي فلم يُفْهَم صوتُه من وَقْع دَمْع الندم[2].

---

(١) جدد حياتك، ص ١٣٥- ١٣٦.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ١٢٧.

CRSOCRSOCRSOCRSOCRSOCRSOCRSOCRSOCRSOCRSO

لا يَصْـرفُ الإنســانُ قيمــةَ دِرهَــمٍ عَبَثاً ويَصرِفُ عُمرَهُ الغالي سُـدَى!

وأنت اليوم مطالبٌ بفقه فرض الوقت الذي يقتضي منك أن تعرف واجباتـك في اللحظة التي أنت فيها، ومطالب بفقه فرض العصـر الـذي يقتضـي منـك إدراك واجبات عصرك، وما يلزم الأمة من مواكبة الحضارة وامتلاك التقنية الحديثة[١].

والعاقل الفطن هو الذي يحسن إدارة وقته، ويرتّـب أولويّاتـه، ويضـع الخطـط لقضاء عمره قبل فوات أوانه، **وينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار هذه النقاط:**

- التقيّد بأوقات العبادة المحدّدة، مثل مواعيد الصلاة، وإيتاء الزكاة بعـد الحَـوْل، وصيام شهر رمضان، وحجّ البيت في أول فرصة تَسْنح، ولو مرّة في العمر.
- التقيّد بأوقات معينة لأذكار الصباح والمساء، وقراءة القرآن، ومحاسـبة الـنفس كُلّ ليلة[٢].
- تخصيص أوقات معينة لصلة الأرحام، وزيارة أهل الخير، والمرضى، والمشافي، والقبور.
- القيام بالواجبات العلميّة من دراسة وتأليف وتعليـم دون إبطـاء أو تثاقـل أو تكاسُل.
- المحافظة على الدَّوام وإتقان العمل في دور العلم والمؤسسات والشركات.

---

(١) كـي لا نمضـي بعيـداً عـن احتياجـات العصـر، سـعيد حـوى، دار السـلام، القـاهرة، ط٤، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص١٣.

(٢) الأذكار، النوويّ(٦٧٦هـ)، اعتنى به وعلّق عليه: عبد الرحمن المصطاوي، مؤسسة المعارف، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٧٠-٨١.

والعمر قصير، والوقت سريع الانقضاء، وما يصفو لك منه إلا القليل، فالتمساح والسُّلحفاة والنَّسر والغراب تعيشُ أضعاف ما تعيشه أنت، فعمرك في الحقيقة هو (٥) سنين، فإذا فرضتَ أنَّ عمركَ الكامل (٦٠) سنة فتكون سنواته على النحو التالي:

(٣٠) سنة لإتمام الدراسة، والإعداد للزواج، وتهيئة المستقبل.

(٢٥) سنة لتربية الأولاد، وتأمين دراستهم، وإعدادهم للاستقلال الذاتي"[1].

وإذا حسبتَ عمركَ الحقيقي من العمر المُفْتَرض (٦٠) سنة حساباً مفصّلاً، فيكون ما يلي:

(٢٠) سنة نوم/ على تقدير أنّك تنام (٨) ساعات كلّ ليلة.

(٢٠) سنة دوام في المدرسة والعمل/ على تقدير أنّك تعمل (٨) ساعات يومياً.

(١٠) سنوات أنشطة/ رياضة، زيارات، رحلات، مشاهدة تلفاز/ على تقدير (٤) ساعات.

(٥) سنوات أكل وشرب/ على تقدير أنّك تأكل مدة (ساعتين) يومياً.

(٣) سنوات لقضاء الحاجة/ على تقدير قضاء (ساعة) في الحمَّام كلّ يوم.

المجموع= ٥٨ سنة. فكم يبقى للعبادة؟ سنتان فقط من (٦٠) سنة!

ولكنّك إذا قصدتَ وجه ربّك في عملك ومنامك، وأنشطتك ومَرَحك، فإنّ ذلك كلّه سيحسبُ لك عبادة، واقرأ إنْ شئتَ: "قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ

---

(١) نظرة في أعماق الإنسان، د. محمد صبحي أبو غنيمة، مطبعة الأديب فؤاد صيداوي، ١٩٥٨م، ج١، ص ٣٨-٣٩.

ومماتي لله رَبِّ العالمين".

خامساً- إصلاح العالَم:

عالَمُك اليوم يعجّ بالأفكار والتيارات، ويموج بالإلحاد والانحلال، ويفترس فيه القويُّ الثَّري الضعيفَ الفقير، وتسيلُ فيه أنهارٌ من الدّماء الزَّكية، ويمتلئ بألوان مختلفة من الرُّعب والخوف والقلق، حتى أصبح المرءُ يستأنس بصوت الوحش، ويفزع من صوت أخيه الإنسان:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذْ عوى وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ!

خُذْ مثلاً هذه الإحصاءاتِ لترى عن كثب أيّ محنة تجتاحُ هذا العالم المتسارع المتصارع:

يبلغ عدد الفقراء والجياع والمرضى نحو خمسة مليارات نسمة من أصل ستة مليارات، منهم نحو خمسمائة مليون مصاب بأمراض نفسية، ومنهم نحو ثلاثة ملايين نسمة يموتون كلَّ سنة بسبب الملاريا وحدها، ومنهم نحو ستمائة وستين مليون مدخّن يموت منهم كلّ سنة خمسة ملايين نسمة[1].

والإحصاءات كثيرة تطول، والأرقام فيها مرعبة: أرقام الحوادث، والحرائق، والمخدّرات، والاغتيالات، والاتجار بالبشر، ونفوق الماشية، والتلوّث البيئيّ، والعنف ضدّ الأطفال، والقرصنة، والتعذيب، وأسلحة الدمار الشامل:

أنجبَ التاريخُ عصراً أحمقا شرُّهُ مُنتشرٌ لا يُتَّقَى

(١) هل تكسب الإنسانية معركتها، الهيئة المستقلة الخاصة بالقضايا الإنسانية في العالم، ترجمة: محمد عصفور، مطبعة بنك البتراء، عمان، د.ط، د.ت، ص ٣٢-٤٧.

قُتِـــلَ الإنســـانُ فـــي أحشـــائِه وسَـــما الشَّـــيطانُ فيـــه وارْتَقـــى!

فعالَمُك هذا الجائع السّقيم الحزين يحتاج إلى مَنْ يُصلحه حاجةَ البيت المظلم الموحش إلى قنديل ينشر الضياء في أرجائه، ويشيع الطمأنينة في أنحائه.

عالَمُك هذا يحتاجُ إليك لتصلحَهُ بالكلمة الطيبة، وتضمّد جراحه بالفكرة الهادية، وتحقن دماءه بالتوعية والتبصرة، وتأخذه إلى برّ الأمان بالرّأي السَّديد، وتسدّ جوعته بالدرهم الذي تملكه، ولا تستصغر شأنك، ولا تقلْ مَنْ أنا حتى أصلحَ هذا العالَم الخَرِب المضطرب؟

أتحســـبُ أنّـــك جـــرمٌ صـــغيرٌ وفيـــك انطـــوى العـــالَمُ الأكـــبرُ!

بل حاولْ واجتهد، واصنعْ من الليمونة الحامضة شراباً حلواً مُسْتساغاً.

وحذارِ أن تبتدئ بإصلاح العالم قبل أن تصلحَ نفسك التي بين جنبيك، والتي هي أحقّ ما يُصْلح عليك، فتكون كمَنْ يضمّد جرحَهُ على فساد، أو كمَنْ ينفخ في رماد، وماذا يفيدك اتّساعُ العالم إذا كان حذاؤك ضيّقاً؟!

ويومَ تنيرُ شمعة، أو تردمُ حفرة، أو تطلق يداً مُصفّدة، أو تغرس شجرة، أو تمسح دمعة، أو تخيط ثوباً، أو تُهدي وردة، أو تتصدّق ولو بشقّ تمرة، يومئذ تكون قد أصلحتَ شيئاً، ونلتَ مرضاة ربّك، واستجلبتَ محبّة الناس:

أحسنْ إلى النـاس تسـتعبدْ قلـوبَهمُ فطالمـا اسـتعبدَ الإنسـانَ إحسـانُ

مَن جادَ بالمـالِ مـالَ النـاسُ قاطبـةً إليـــهِ والمـــالُ للإنســـانِ فتّـــانُ

أَحْسِـنْ إذا كـان إمكـانٌ ومقـدرةٌ فلن يـدومَ علـى الإنسـانِ إمكـانُ!

ﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭﭬﭭ

سادساً- الاستقامة وعلو الهمّة:

لقد رسم لك ربّك العليّ العظيم منهجاً واضحاً لتسير عليه، ووضع لك خُطّة لتلتزمها في فكرك وسلوكك، وعلاقتك مع ربّك، وعلاقتك مع الناس، وعلاقتك مع الأشياء من حولك، ويتلخّص هذا المنهج في أمرين: صحة الإيمان بالغيب كلّه كما جاء في القرآن الكريم، والتزام كتاب الله، وما فسّرته السُّنة النبويّة الشريفة، ومتابعة هذا المنهج، وتنفيذ هذه الخطّة هو المعبّر عنه بالاستقامة(١):

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]

ولهذا الصراط المستقيم علاماتٌ تُنبئ العبد أنّه سائر على أمر ربّه:

١- إخلاص النية، وتوجيه العمل ابتغاء وجه الله، فإذا كان قصدُك في العلم مثلاً نيلَ عرَض الدنيا وجذْبَ حُطامها، وتحصيلَ مناصبها، والمباهاةَ على الأقران فلستَ على الصِّراط، وإن كان قصدُك فيه إحياء شريعة النبيّ ﷺ، وتهذيب أخلاقك، وكَسْر النفس الأمّارة بالسوء فطوبى لك:

سهرُ العيونِ لغير وجهك ضائعٌ ... وبكاؤهنَّ لغير فقدك باطلُ! (٢)

٢- تجديد الإيمان، فالإيمان ينقص ويزيد، ويبلى في القلب كما يبلى الثوب إذا اهترأ، وتعتري قلبَ المؤمن في بعض الأحيان سحابةٌ من سُحب المعصية فيظلم، وتحجب نوره، وتعتريه الوحشة، فإذا سعى العبدُ إلى زيادة إيمانه انقشعتْ تلك السُّحب، وعاد نورُ قلبه يضيء كما كان(٣).

---

(١)إسلامنا، السيد سابق، ١٤٤.

(٢) أيها الولد المحب، أبو حامد الغزالي، ص ٣٢- ٣٣

(٣) ظاهرة ضعف الإيمان، محمد صالح المنجد، ص ٣٢-٣٣.

ﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒﭑﭒ

جاء في الحديث الشريف: "إنَّ الإيمانَ ليخلقُ في جوفِ أحدِكم كما يخلقُ الثوب، فاسألوا الله أنْ يجدّدَ الإيمانَ في قلوبِكم"[1].

وجاء أيضاً: "ما من القلوب قلبٌ إلا وله سحابةٌ كسحابة القمر، بينا القمر مُضيء؛ إذ علته سحابةٌ فأظلم، إذ تجلّتْ عنه فأضاء"[2].

ومن طبيعة الإنسان أنّ النسيان يغلب عليه إذا لم يتذكّر ويدّكر، وأنَّ قلبه يذهب به كلَّ مذهب:

وما سُمِّي الإنسانُ إلا لنسيانِهْ ولا القلبُ إلا أنّهُ يتقلّبُ!

٣- الاجتهاد وبذل الوسع، وهو علامة تُميّزُ المجتهدين الذين يحرصون على استقامة قلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم، حرصَهم على أرواحهم ودمائهم؛ ذلك لأنَّ علوَّ الهمّة باعث على الفضائل، وحياةٌ للقلب، وصاحبُ الهمّة صابرٌ على المشاقّ والمعاناة، لا ينقض عزمه، ولا يضرّه التفرّد في الطريق، ولا يعرف الكلَل والملَل، ولا يرضى بالدّون، ولا ترضيه إلا معالي الأمور[3].

وصاحبُ الهمّة في فرار إلى الله وليس منه، فالمؤمن يفرّ إلى الله، والعاصي يفرّ عنه، ولا مفرّ منه مهما اتسعت الأرض، واتسعت الأماني.

ولا بدَّ من الفِرار من الجهلين: الجهل بالعلم، والجهل بالعمل. أمَّا الفِرار من الجهل إلى العلم فيكون بتحصيل العلم اعتقاداً ومعرفة وبصيرة، وأمّا الفرار من

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ج١، ص ٤، وهو في السلسلة الصحيحة رقم ١٥٨٥.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ج٢، ص ١٩٦، وهو في السلسلة الصحيحة رقم ٢٢٦٨.

(٣) رياض الأنس في بيان أصول تزكية النفس، إبراهيم العلي، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ط٢، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م، ص ٨٠- ٩٢.

جهل العلم فيكون بالسعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً، وهو فرار من الكسل إلى التشمير جدّاً وعزماً، ومن ضيق الصدر بالهموم إلى سعة الثقة بالله، وصدق التوكّل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه[1].

وقد تدركُ الإنسانَ رحمةُ ربِّهِ ولو كان تحتَ الأرضِ سبعينَ واديا!

فإذا فررتُ إلى الله فاحذر من الفتور، وألحق العملَ بالعمل، والتعبَ بالنصب، والجهدَ بالمشقة، فتيارُ الحياة صغير، وفرصةُ العيش محدودة، وإذا فرغتَ فانصب، وحافظْ على إدامة حماسك، فإنّما البركة في المداومة بعد حسن القصد، وصدق النية[2].

روي في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنّه قال: يا بنيَّ، لا يكونَنَّ الدّيكُ أكيسَ منك، ينادي بالأسحار، وأنت نائم! ولقد أحسن مَنْ قال شعراً:

لقد هتَفتْ في جُنحِ ليلٍ حمامةٌ عَلى فنَنٍ وَهْناً وإنّي لنائمُ

كذبتُ وبيتِ الله لو كنتُ عاشقاً لما سبقتني بالبكاءِ الحمائمُ

وأزعمُ أني هائمٌ ذو صَبابةٍ لربي فلا أبكي وتبكي البهائمُ![3]

وما أكثرَ الذي يكثرون من الكلام، ويقلّلون من العمل في زماننا هذا زمانِ التنظير، والتعلّق بالقشور، وما أكثرَ الذين تجرّهم ألسنتُهم إلى البوائق والمهالك:

---

(١) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د.ت، ج١، ص ٥٠٤-٥٠٦.

(٢) مجموعة رسائل العين، محمد أحمد الراشد، د. عادل الشويخ، ص ٣١١-٣١٢.

(٣) أيها الولد، أبو حامد الغزالي، ص ٤٣- ٤٤.

احفظْ لسانك أيّها الإنسانُ　　　لا يخدعنّك إنّه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيلِ لسانِه　　　كانت تهابُ لقاءَهُ الشّجعانُ!

وانظرْ إلى هذه النماذج الإنسانية الرائعة التي بذل أصحابُها أقصى طاقاتهم، حتى لم يبقَ لمجتهدٍ منهم مزيدُ جهد، وهي اجتهادات في الدّين والعلم والأدب أضعها أمامَ ناظريك[1]:

- مكثَ التابعيّ الجليل سعيد بن المسيِّب أربعين سنة ما فاتته صلاةُ الجماعة!
- بلغ شيوخ البخاريّ نحو ألف شيخ، وسمعَ منه كتابه الصَّحيح نحو سبعين ألف إنسان!
- شرح الإمام القرطبي "صحيحَ مسلم"، وهو على ظهر السفينة!
- كان ابنُ أبي ذهل ينفقُ من ماله الخاصّ على خمسة آلاف بيت!
- ألّف ابن الأثير كتبه القيّمة مثل "جامع الأصول"، و"النهاية في غريب الحديث" وهو مُقْعَد!
- ألّف السّرخسي كتابه الشهير "المبسوط" في خمسة عشر مجلداً، وهو محبوس في بئر!
- أنفقَ يحيى بن مَعين ألفَ ألف درهم في طلب الحديث حتى لم يبقَ له نعلٌ يلبسُها!
- طاف الإمام أحمد بن حَنْبل الدُّنيا مرّتين حتى جمعَ المُسْنَد!

---

(١) انظر: صفحات مشرقة من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه: سلمان بن عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، ط ٧، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

- كان أبو معشر الكوفيّ يمشي مسافةَ مائتي ميل من أجلِ حديثٍ واحد!
- كان في مكتب الضَّحاك بن مُزاحم ثلاثةُ آلاف صبي يعلّمهم القرآن!
- كتبَ العلاّمة ابن القيم كتابه "زاد المعاد"، وهو مسافر!
- أملى الشاعر الأديب أبو العلاء المعري دواوينه وكتبه، وهو أعمى!
- بلغ عددُ شيوخ الإمام أبي سعد السَّمعاني سبعةَ آلاف شيخ، وهذا ما لم يبلغه أحد!
- مكث الطبري صاحب "جامع البيان" أربعين سنة يكتبُ كُلّ يومٍ أربعين ورقة!
- رحل بَقِي بن مَخْلَد من الأندلس إلى المشرق على قدميه رحلتين استغرقتا أربعةً وثلاثين عاماً! وباع سراويلَه غير مرّة لشراء ورقِ الكتابة، وشهدَ سبعين غزوةً في حياته!
- كان الوزير الفتح بن خاقان يخفي الكتاب في كمّه أو خفّه، وهو بين يدي الخليفة المتوكّل، فإذا قام المتوكّل لحاجة، أو قام هو لحاجة أخرج الكتاب ونظر فيه!
- دخل ابنُ النفيس مرةً الحمَّام ليغتسل، ثمَّ ارتدى ثيابَه على عَجل، واستدعى بدواة وقلم، فكتب مقالةً في النَّبض، ثُم عادَ وأكمل اغتساله!
- كتب ابنُ الجوزي بيده ألفي مجلدة، وتاب على يديه مائة ألف إنسان، وكان يجمعُ بُراية الأقلام التي يكتبُ بها، ولما حضرته الوفاة أوصى أن يُسخّنَ ماءُ غُسْله ببُراية تلك الأقلام، فلما مات عملوا بوصيته فكفَت البرُاية، وزادَ منها شيءٌ بعد ذلك!

- عاش عددٌ من العلماء والأدباء عُزَّاباً لم يتزوّجوا تفرّغاً للعلم والدّعوة والأدب، منهم يونس بن حَبيب، وبِشْر الحافي، وأبو علي الفارسيّ، والنوويّ، وابن تيمية!

ولا شكَّ أنَّ مجالسة الصَّالحين، أو سماع أخبارهم، أو قراءة وقائعهم وسيرهم من أهم مقاصد الحياة عند العقلاء الصّلحاء، فما تُحبّب الدنيا لعاقل إلا لتكميل صفاته، وتكثير حسناته، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب ﷺ:

"لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاء فيها: لولا أن أحملَ أو أجهّزَ جيشاً في سبيل الله، ولولا مكابدة الليل (يعني قيام الليل)، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايبَ الكلام كما يُنْتَقى أطايب التمر"[1].

ولعلك تتساءل ما سرّ علوّ الهمّة عند هؤلاء المجتهدين؟ إنّه إخلاصهم لله وسعيهم إلى نيل مرضاته، وإحساسهم العميق بنعم الله، وسعيهم إلى شكرها، واشتياقهم الشديد للجنة، وسعيهم إلى الفوز بنعيمها، ومن أجل ذلك ينبغي لك أنْ تشغلَ قلبك، وتُعْملَ فكرك بالتطلّع إلى ما أعدَّ الله عزّ وجلّ لأوليائه في جنته، فمَن اشتغل بذكرها، واشتاق إلى نعيمها لهى عن الرغبة في الدنيا، والحرص عليها، والترجّح بأمانيها، وتركَ طلب العلوّ فيه[2].

في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: "قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصَّالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر،

---

(١) رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي (٢٤٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار السلام، القاهرة، ط١٠، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، ص ٢٠.

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين، ابن الجوزي، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، دار الإسراء، عمان، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١١١.

ﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚﻙﻚ

واقرأوا إنْ شئتم: "فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[1].

وما أُحيلاهُ من لقاءٍ يومَ يَلِجُ المؤمنُ أبوابَ الجنة، ويشمّ رائحتَها العَبِقة، ويتفيّأ في ظلالها الوارفة، وينعمُ بقصورها وأشجارها التي تجري من تحتها الأنهار!

ما أحيلاهُ من لقاء، وقد دنَتْ خيامُ المؤمن من خيام الجنة، وما فيها من خيراتٍ حِسان، وحُور مَقْصورات في الخيام:

وأعظمُ ما يكونُ الشَّوقُ يوماً   إذا دَنَت الخيامُ من الخيامِ!

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة.

الخاتمة

إنّي لآملُ أخي القارئ، أنْ تكـونَ هـذه الرِّسـالة قـد أنـارتْ مصـابيحَ الإشـراق في نفسِك، وأماطت اللثامَ عن طبيعة عالَمِك، وحرّكتْ سَواني همّتك، واستجاشَتْ كـوامنَ عواطفك، وأنبتتْ عليك شجرةً من المثابرة والرّضا، أكُلُها دائمٌ وظلّها.

وكأنّي بك وقد عقَدْتَ نيَّتَك على الارتقاء في معارج السُّموّ، والتَّحليـق في مـدارج الإحسان؛ لتمنحَ نفسَك حظَّها من الرِّي الرّوحي، والشَّهد الخُلُقيّ.

وكأنّي بك، وقد شددتَ المِئزر، وعاهدتَ ربَّك؛ لتؤديَ حقَّهُ الذي عليـك، وتـؤديَ حقّ والديك، وتُعطي كُلَّ ذي حقٍّ حقّه.

وكأنّي بك، وقد نفضتَ غبـارَ الغفلـة، وطويـتَ فـراش العَجْـز، وهجـرتَ اللَّغـو؛ لتنافسَ المجتهدين، وتُجِدَّ السَّيْرَ نحو جنّات النعيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون:

فتشـــبّهوا إنْ لم تكونـــوا مـــثلَهم ... إنَّ التشـــبّهَ بالكـــرامِ فـــلاحُ!

وكأنّي بك تَصَّعَّدُ في جوّ المحامد والمحاسن كلما تلوتَ آية، أو سمعتَ عظة، أو قرأتَ سيرة، كما يصَّعَّدُ المِسْبار يرومُ أجوازَ الفضاء:

ومَـنْ تكـن العليـاءُ همَّـةَ نفسِـه ... فكـلُّ الـذي يلقـاهُ فيهـا مُحبَّـبُ!

وكأنّي بك تُعدُّ النفسَ للقاء الموت، وما أشقَّهُ من لقاء، وكلُّ حـيّ لا محالـةَ هالـك، وتستعدُّ لوداع الأحبة، والترحُّل عـن دنيـاهم، ومسـاكنة أهـل القبـور، ومجـاورة المـوتى،

وإلقاء جسدك للدود، والمكث في حفرةٍ مظلمة موحشة، ليس فيها فراشٌ وثير، ولا ثيـابٌ ولا عُطور، ولا أنيسٌ ولا جليس، ولا ضياءٌ ولا نور:

ليس الغريبُ غريبَ الشَّامِ واليمَنِ إنَّ الغريبَ غريبُ اللَّحدِ والكَفَـنِ!

تخيّلْ أخي لو أنَّ إنساناً أخبره الأطباءُ أنّه سيموتُ بعـد شـهر، كيـف يكـونُ حالُـهُ؟ وماذا سيفعلُ ليرضيَ ربّه فيما بقيَ له؟

وتخيّلْ لو قيل له: إنّه سيموتُ بعد أسبوع، أو بعد ثلاثة أيام، أو بعد يوم.

فهل ترى أنَّ تلك المدّة تكفيه، وهل ترى أنَّها تكفيني أنـا، أو تكفيـك أنـت، وأنـت مُشْتعلُ الهمّة، ماضي العزيمة، شديدُ التوهّج؟

لا جرمَ أنَّه سيجتهدُ اجتهاداً عظيماً في عمل الطَّاعـات، ولكنّـه سيشـعرُ أنَّ الوقـتَ قليل قصير كأنّه ساعة أو بعض ساعة، وأنّه يمرّ مسرعاً كالبرق الخـاطف، وأنّـه يحتـاجُ إلى مدّة طويلة؛ ليستعدَّ للقاء مَلَك الموت.

وهذا حالُ مَنْ عندَهُ علم ظنيّ بقرب أجلِه، فكيف بحـال مَـنْ لا علـمَ عنـده، وقـد يفاجئُهُ الموت، وهو غير مُستعدّ، ولربما لو أرادَ الاسـتعداد لاحتـاج إلى سـنةٍ كاملـة علـى الأقلّ!

فهل تحبُّ أنْ تكونَ مثلَ هذا غافلاً في قَرارٍ من الدنيا مَكين، غارقـاً في حمـأة الطـين، نادماً يومَ الدِّين، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم؟

وعظتُـك أيُّهـا الإنســانُ وَعْظـي فـلا أكُ واعـظَ الـدّمنِ الخـوالي!

فالاجتهادَ الاجتهاد، والإعدادَ الإعداد؛ ليظلَّ نداءُ الله ﷻ إليك راسخاً في عقلِك، قائماً في نفسِك، حاضراً على شاشةِ وجهك، يذكّرُك بخالقِك البارئ المصوِّر، ويحفِّزُك إلى العمل الصَّالح المثمر، ما كُتِبَتْ لك حياة، وما شاءَ لك ربُّك أن تعيشَ حتى تلقاه:

تزوّدْ للذي لا بدَّ منه ... فإنَّ الموتَ ميقاتُ العبادِ

أترضى أنْ تكونَ رفيقَ قومٍ ... لهم زادٌ وأنتَ بغيرِ زادِ؟

ومسك الختام،

أحمدُك ربّي أنْ خَلَقْتَني إنساناً سويّاً، وجعلتني عبداً لك مُكرّماً، بعد أنْ لم أكنْ شيئاً مذكوراً، وأحمدُك ربّي أنْ أخرجتَني من إنسانين كريمين ربَّياني صغيراً، وأدَّباني فأحسنا تأديبي، ورعياني كبيراً، فأنا منذُ صغري أعومُ في بحر حنانِهما وعطفِهما، وأجني ثمارَ جُهْدِهما وبَركَتِهما:

- رَبِّ فاغفرْ لهما مغفرةً واسعةً، وارحمْهُما كَما ربَّياني صَغيراً، واجعلْ قَبْرَيْهما روضتين من رياضِ النَّعيم.
- رَبِّ ابنِ لهما عندَك بيتاً في الجنّة، وأَلْحِقْ بهما ذُريّتَهما بنينَ وبناتٍ وحَفَدة، ونجِّهما من نار الجحيم.
- رَبِّ اكتب العزّةَ والتمكين لهذه الأمّة المسلمة، واجعلْ رايتَها فوقَ رايات العالمين، وتقبّلْ شهداءَها، واشْفِ جرحاها ومرضاها، وارحمْ موتاها، إنّك نعمَ المولى، ونعمَ النَّصير.

والحمدُ لله ربِّ العالمين

المصادر والمراجع

١- أدب الدِّين والدُّنيا، أبو الحسن الماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢- إذا مات ابن آدم، د. خالد عطية السُّعودي، دار عمار، عَمَّان، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٣- الأذكار، النوويّ (٦٧٦هـ)، اعتنى به وعلّق عليه: عبد الرحمن المصطاوي، مؤسسة المعارف، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤- إسلامنا، السيد سابق، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٥- الإعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، مكتبة التحرير، بغداد، ط٣، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٦- الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، د. محيي الدين كحالة، عَمَّان، د.ط، ٢٠٠٤م.

٧- الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، نخبة من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.

٨- الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٩- الإنسان ذلك الكائن الفريد، جون لويس، ترجمة: د. صالح جواد كاظم، وزارة الثقافة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.

١٠- الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، د.ت.

١١- الإنسان في الأدب الإسلاميّ، د. محمد عادل الهاشمي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، د. ط، د.ت.

١٢- الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، د.ت.

١٣- إنسانيات محمّد، خالد محمد خالد، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

١٤- أيّها الولد المحبّ، أبو حامد الغزالي، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

١٥- بستان العارفين، النوويّ، نقّحه وعلّق عليه: محمد الحجار، دار الدعوة، حلب، د.ط، د.ت.

١٦- بستان الواعظين ورياض السَّامعين، ابن الجوزي، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، دار الإسراء، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.

١٧- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٨- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

١٩- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، هذّبه وحققه: د. بشار عواد معروف، وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

٢٠- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.

٢١- جدد حياتك، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢٢- حراسة الفضيلة، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط٦، ١٤٢١هـ٢٠٠٠م.

٢٣- حقائق علمية في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

٢٤- حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة، محمد الصالح العثيمين، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، ١٤١٩هـ.

٢٥- الحياة في محراب الصلاة، مصطفى مشهور، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، د.ط، د.ت.

٢٦- الخطة البراقة لذي النفس التواقة، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٢٧- دراسة الإنسان، رالف لنتون، ترجمة: عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٦٤م.

٢٨- رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي (٢٤٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار السلام، القاهرة، ط١٠، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٢٩- رياض الأنس في بيان أصول تزكية النفس، إبراهيم العلي، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ط٢، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

٣٠- صفحات مشرقة من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، عبد الفتاح أبو غدة، اعتنى بإخراجه: سلمان بن عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، ط ٧، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

٣١- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٣٢- صور من تسبيح الكائنات لله، د. زغلول النجار، نهضة مصر، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٣م.

٣٣- صور من السلوك الاجتماعي في الإسلام، إبراهيم العلي، دار النفائس، عَمَّان، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٣٤- صيد الخاطر، ابن الجوزي، تحقيق: د. السيد محمد سيد، سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٣٥- شخصية المسلم، د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٥، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

٣٦- الطب محراب الإيمان، د. خالص جلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٧- ظاهرة ضعف الإيمان، محمد صالح المنجد، دار الوطن، الرياض، ط٣، ١٤١٩هـ.

٣٨- العلم يدعو إلى الإيمان، أ. كريسي مُوريسون، ترجمة: محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٥، ١٩٦٥م.

٣٩- الفوائد، ابن قيم الجوزية، اعتنى به وصحّحه: فاتن محمد لبون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٤٠- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط ١٥، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٤١- في النفس الإنسانية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٤٢- القرآن كائن حيّ، مصطفى محمود، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

٤٣- كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٤، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

٤٤- لا تحزن، د. عائض القرني، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٤٥- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٤٦- مجلة الإعجاز العلمي، هيئة الإعجاز العلميّ في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، العدد ٨، شوال ١٤٢٢هـ/ والعدد ١١، شوال ١٤٢٢هـ.

٤٧- مجموعة رسائل العين، محمد أحمد الراشد، د. عادل الشويخ، دار البشير، طنطا، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٤٨- المختار من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي، د. إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩م.

٤٩- مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، علّق عليه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٥٠- مدارج السَّالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د.ت.

٥١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط،١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٥٢- مع الطب في القرآن الكريم، د.عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.

٥٣- المنطلق، محمد أحمد الراشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٥، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

٥٤- منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٦، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

٥٥- الموت عظاته وأحكامه، علي حسن عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، عمان، ط٥، ١٤١٠هـ.

٥٦- نظرة في أعماق الإنسان، د. محمد صبحي أبو غنيمة، مطبعة الأديب فؤاد صيداوي، ١٩٥٨م.

٥٧- الهدي النبويّ في الرقائق، د. شرف القضاة، دار الفرقان، عمان، ط٦، ١٤٢٥هـ٢٠٠٥م.

ઌઍઌઍઌઍઌઍઌઍઌઍઌઍઌઍઌઍઌઍ

٥٨- هذا الدين، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة.

٥٩- هل تكسب الإنسانية معركتها، الهيئة المستقلة الخاصة بالقضايا الإنسانية في العالم، ترجمة: محمد عصفور، مطبعة بنك البتراء، عَمَّان، د.ط، د.ت.

٦٠- الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ط، د.ت.

فهرس الموضوعات

ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪ઍ૪

